أخبار اليوم
قطاع الثقافة

إحسان عبد القدوس



لن أعيش في جلباب أبى

الأعمال الكاملة

إحسان عبد القدوس

■ ولد إحسان محمد عبد القدوس أحمد رضوان فى أول يناير عام ١٩١٩ بالعباسية بالقاهرة . والده المهندس الفنان الممثل والشاعر/ محمد عبد القدوس. والدته السيدة فاطمة محيى الدين اليوسف ، لبنانية الأصل ، ممثلة مسرح وأسست دار روز اليوسف للصحافة والنشر عام ١٩٢٥ .

■ تخرج فى كلية الحقوق عام ١٩٤٢ . عمل لمدة سنة كمحام ثم عمل بعدها كصحفى بمجلة روز اليوسف ثم عينته والدته رئيساً لتحرير المجلة ، وظل بها رئيساً للتحرير حتى عام ١٩٦٤ .

■ تولى رئاسة تحرير « أخبار اليوم » من عام ١٩٦٦ حتى ١٩٧٤ ورئيساً لمجلس إدارتها من عام ١٩٧١ حتى عام ١٩٧٤ .

■ عمل كاتباً بالأهرام من عام ١٩٧٤ حتى وفاته وكان قد عُيِّن رئيساً لمجلس إدارة مؤسسة الأهرام خلال عامى ١٩٧٥ ، ١٩٧٦ .

■ تعرض للاغتيال والسجن عدة مرات بسبب كتاباته السياسية وخصوصاً عن قضية الأسلحة الفاسدة التى استخدمت فى حرب فلسطين وكان لهذه الكتابات أثر كبير لتهيئة الرأى العام لقيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

■ كتب مئات الروايات والقصص القصيرة نشرت فى جرائد ومجلات مصرية وعربية وجمعت فى ٦٠ كتاباً وترجم العديد منها إلى أكثر من لغة أجنبية وتم تحويل عشرات منها إلى أعمال سينمائية وتليفزيونية ومسرحية وإذاعية .

■ كان يؤمن بشدة بأن الحب والصدق وحرية الرأى هى أسس العلاقات الإنسانية .

■ أنعش الحركة الثقافية بدعوته لإنشاء المجلس الأعلى للفنون والآداب ومشاركته الإيجابية فى تأسيس نادى القصة وجمعية الأدباء .

■ حاز على العديد من الجوائز والأوسمة المصرية والأجنبية من جمعيات ومهرجانات سينمائية تقديراً لقصص أفلامه منها جائزة الدولة التقديرية فى الأدب بعد وفاته .

■ توفاه الله إلى رحمته فى ١١ يناير ١٩٩٠ .

24
6 222007 800047

المجموعة الأعمال الكاملة
إحسان عبد القدوس

دار

أخبار اليوم

قطاع الثقافة
والكتب والمكتبات

لن أعيش فى جلباب أبى

إحسان عبد القدوس

١

كانت صداقتى لعبد الوهاب البرعى صداقة من نوع عجيب .. فأحياناً كنت أعتقد أننا مجرد معارف .. فأنا أعرفه وهو يعرفنى منذ كنا طلبة فى المدرسة الابتدائية ثم فى المدرسة الثانوية .. ولكنى أحياناً كنت أفاجأ به وكأنه صديق حميم إلى حد أن يطلعنى على كل أسراره ويستشيرنى فى كل ما يطرأ على حياته حتى لو كنا قد التقينا صدفة ..

وكنا قد التقينا صدفة فى أحد شوارع حى الزمالك حيث يقيم كلانا ، ودعوته لتناول فنجان قهوة فى نادى الجزيرة .. وقال لى بعد أن انتهينا من الكلام المائع الذى يبدأ به كل حديث :

– سأتزوج ..

قالها وهو ساهم وبلا فرحة ، وصحت فيه كأنى أحقنه بالفرحة :

– ألف مبروك .. ربنا يتمم بخير ..

وقال وهو لا يزال ساهماً :

- إنها مسلمة ..

وقلت فى دهشة :

- طبعاً .. لابد أن تكون مسلمة .. إن ما أعرفه عنك يجعلنى لا أنتظر لك أن تتزوج من غير مسلمة ..

وقال فى صوته الخافت الساهم :

- إنها أمريكية ..

واشتدت بى الدهشة حتى كادت تقفز بى من فوق مقعدى وصحت :

- هل هى أمريكية أسلمت أم أمريكية من عائلة مسلمة ..

وقال متنهداً كأنه يعيش مأساة :

- لقد أسلمت ..

وقلت وأنا أفتعل الفرحة كأنى أحاول إنقاذه :

- هل أنت الذى أدخلتها الإسلام .. لك الجنة ..

وقال وصوته لا يزال خافتاً :

- لا .. لقد وجدتها مسلمة ..

وقلت وقد بدأ صوتى يخفت مع صوته :

- وكيف أسلمت ؟

قال فى ضيق :

- لابد أنها اقتنعت بالإسلام .. إنها مثقفة .. اسمع أنى سأذهب إليها مساء اليوم لتأكيد الخطوبة وإعلانها .. هل تأتى معى ..

وقلت حائراً :

- يشرفنى .. أين تقيم العروس ؟

وقال بسرعة :

- إنها تقيم مع الدكتورة فوزية الباجورى فى بيتها .. هل تعرف الدكتورة فوزية ..

وقلت وقد عادت الدهشة تستبد بى :

- طبعاً أعرفها .. إنها جارتنا .. ولو أنى لم أرها منذ عادت هى وزوجها من أمريكا .. ولكن هل ستذهب لإعلان الخطوبة وليس معك أحد من العائلة ..

قال وهو يقوم واقفاً :

- أختى ستسبقنى إلى هناك ..

قلت مبتسماً :

- وأبوك ..

ورد فى حدة كأنه ينهرنى :

- إنه موضوع لا يخص أبى .. يكفى أن تكون أنت معى وأنت أعز صديق .. سنلتقى هنا فى الساعة ..

وتركنى دون أن يصافحنى وابتعد مسرعاً كأنه يجرى منى وأنا أتتبعه بنظرات ملؤها التعجب والدهشة والحيرة ..

●●●

وعبد الوهاب منذ كان معنا فى المدرسة الابتدائية وهو مشهور حتى اليوم بأنه ابن الحاج عبد الغفور البرعى .. ولم يكن عبد الوهاب سعيداً أبداً بهذه الشهرة ، وكان يتعمد ألا يتحدث أبداً عن أبيه ويهرب من أى سؤال يوجه إليه عن أبيه .. كأنه كان يستعر منه .. وذلك رغم أنى أعتبر أباه الحاج عبدالغفور معجزة خارقة من معجزات الزمن .. إنه لا أحد يعلم شيئاً عن أصله وفصله ، ولم يعرف عنه أنه من المعجزات المثقفة ، بل قيل عنه إنه لم يدخل مدرسة فى حياته وأنه إلى

الآن لا يجيد القراءة والكتابة .. وهو إلى الآن يرتدى بين الناس الجلباب الواسع وفوق رأسه لبدة ملفوفة داخل لفافة ملونة تفرقها عن لفافة العمة .. وعبد الغفور بدأ كما يحكى عنه عاملا فى مخزن من مخازن وكالة البلح ينقل على كتفيه قطع الحديد الخردة ، ولكنه أخذ يكتشف بسرعة أسرار وكالة البلح .. وبدأ يجازف بعمليات بيع وشراء صغيرة .. ثم أخذ يكبر ويكبر إلى أن أصبح من أكبر تجار الحديد الخردة فى الوكالة .. أصبح مليونيراً .. بل إنه وصل إلى استيراد آلات حديثة لصهر الحديد وقطعه مما در عليه عمليات ضخمة تدر عليه مزيداً من الملايين .. وكان يشاع عن الحاج عبد الغفور ما يشاع عن كل أصحاب الملايين .. إنه يرشو ويهرب ويسرق ، حتى قيل إنه لم يؤد فريضة الحاج ولكنه اغتصب لقب حاج وأسبغه على نفسه ..

ولا يستطيع أحد أن يحدد كم يملك الحاج عبد الغفور .. كل ما يعرفه الناس عنه أنه يملك أربع عمارات حديثة ضخمة .. اثنتان منها فى الزمالك واثنتان فى شارع النيل بالجيزة .. وكان قد انتقل منذ سنوات من الشقة التى كان يسكنها فى بولاق هو وزوجته وولداه عبد الوهاب وعبد الستار وأربع من البنات .. وأقام فى شقة واسعة فى أعلى عمارة يملكها .. فى الزمالك .. ثم اشترى منذ سنوات فيلا أو قصراً من القصور القديمة فى شارع حسن صبرى بالزمالك أيضاً ، واعتقدنا فيما بيننا أنه سينتقل هو والعائلة إلى هذا القصر حتى يمتع نفسه ويمتع أولاده بما وهبه الله ، ولكننا فوجئنا بأن القصر قد استأجرته إحدى السفارات .. وظل الحاج عبد الغفور كما هو

فى الشـقـة العـاليـة .. إنه لا يحب المظاهر ولا يحب التـبـاهى بثرائه ، بل إنه ليس معروفاً بشخصـه فى المجتمعات الراقية .. إنه لا هو ولا أولاده أعـضـاء فى نـادى الجـزيرة رغم أنه ناد أصبح يجـمع كل من هب ودب ، إنه بجلبابه ولبدته لا يتـحرك ولا يقول السـلام عليكم إلا إذا وجد كل ما تقوم عليـه دنياه .. خذ وهات .. ماذا تساوى الدنيا بلا خذ وهات ..

وكان للحاج عبـد الغفور عدد كبيـر من الموظفين والمعاونين علاوة عن العمـال ، وكان معاونوه طبعاً مـن المتعلمين ، ولكنه لم يكن يؤمن بمنتـهى العلم .. لم يكن بيـن معـاونيه مـهندس معروف أو مـدير معروف ، فقد كـان يعتمد كل الاعـتماد على ذكائه وحـده ولا يريد من المعاونين إلا خدمـة هذا الذكاء .. أن يكونوا جنـوداً لذكـائه .. وقـد قـيل لنا ضـمن الحـكايات التى نسمـعها عنه أنه كـان جالسا مرة فى مـقهى قريبـاً من وكالة البلح تعود أن يمر عليه ليشد نفـسين شيشة قبل أن يعود إلى البـيت ، وسمع بعـض من حوله يتـحـدثون عن آلات الصـهـر والقطع الحديثـة التى تعمل فى بلاد بره .. ولـم يشـتـرك الحاج عبـد الغفـور فى الحديث ولم يقل كلمـة .. وفى صبـاح اليوم التالى جمـع اثنين من المتعلمين الذين يعملون مـعه وروى لهم ما سـمعه .. ثم قال .. شـوفوا لنا الحكاية دى .. وبعد بضـعة شهـور كان قـد استـورد آلات الصـهـر والقطع .. إنه معـجزة خارقة ..

ولم يكن ابنه عبد الوهاب ولا ابنه عبد الستار من معاونيه ، بل إنهم لم يذهـبوا يـوماً إلـى وكـالة البلح ولم يريا مـخـازن مـلايين أبيـهم .. كـان بينهـمـا وبينه إحسـاس من الجـفـاء

الصامت .. كانا ينظران إليه كأنه إنسان جاهل لا يمكن أن يرتقى بنفسه ولا بهم .. ربما لأنه يحتفظ بمستواه الاجتماعى المنعزل المتواضع ، ولا يزال مصراً على الجلباب الواسع واللبدة التى يضعها فوق رأسه .. أما هو فكان يعاملهما على أن كلا منهما مسئول عن نفسه .. إنه عاش مسئولاً عن نفسه وكل ما وصل إليه لم يكن لأبيه فضل فيه .. هذه هى الحياة .. كل ابن يولد وهو مسئول عن نفسه .. ولذلك تركهما دون أن يحاول أن يشدهما إلى دنياه .. إلى العمل معه وفهم أسرار وكالة البلح .. إنه اكتشف بنفسه أسرار الوكالة فليكتشفها ولداه أيضاً لو أراد أحدهما اكتشافها .

ولكن ما كان يقوله الناس عن الحاج عبد الغفور أنه بخيل فى منتهى البخل حتى أنه يخاف على ما يملكه من ولديه فلا يقول لهما كم يملك ولا ماذا يملك ولا أين يحتفظ بما يملك .. حتى لا يثير طمع أحدهما فيه .. بل ربما كان يتعمد إبعادهما عنه كنوع من الحيطة واتقاء خوفه من شرهما .. وكان بجانب مصروفات العائلة العادية يخصص لكل منهما مصروفاً أسبوعياً .. وكانت الأم هى الوحيدة ، التى يتعامل معها مالياً .. يعطيها مصروف البيت ويعطيها مصروفات الأولاد والبنات ويتركها تتصرف وهو واثق أنها لن تزعجه أبداً .. إنها هى الأخرى لم تتغير منذ تزوجها عبد الغفور .. كان أبوها يعمل معه عاملا شيالا فى وكالة البلح وكانت تقيم فى دخانيق بولاق ، ومن يومها لم تحاول أبدا أن ترتفع إلى مستوى آخر .. أو تعيش مجتمعاً آخر .. حتى بعد أن انتقلت لتقيم فى الزمالك .. إنها لا تهتم بأن تتعرف بسيدات الزمالك ولا بسكان

العمارة التى يملكها زوجها .. إنها تكتفى بأنها زوجة صاحب العمارة ، وتتباهى بالأساور الذهبية التى تكسو بها رسغيها .. وعبد الغفور يزيدها من الأساور الذهبية لا لمجرد إشباع نزواتها فى التباهى كأى امرأة ولكن لأنه يعلم أن جمع الذهب هو جمع لأمواله .. تحويش .. وفى أى وقت يستطيع أن يبيع الذهب ويسترد أمواله مع ارتفاع السعر .. إنه مع بخله الشديد يبقى مستغلا ذكاءه .. ذكاء السوق .. إنه مثلا كتب العمارات التى يملكها بأسماء ولديه وبناته لا تنازلاً عنها لهم ولكن تهرباً من الضرائب .. وليس لأحد فيهم أن يتحكم فى أى عمارة باسمه .. بل قد لا يعلم أى واحد منهم كم تدر هذه العمارة من قيمة الايجارات .. إن الإدارة والتصرف له وحده ، بل إنه تنظيماً لأعماله وتخففاً من الضرائب أيضا قسم هذه الأعمال فى ثلاث شركات وجعل شركتين منها باسم أولاده وهم لا يعلمون عنها شيئاً .. إنهم يوقعون على أوراق يحملها لهم مدبولى أفندى سكرتير أبيهم وهم صامتون لا يسألون ولا يفهمون ..

كما أن بخل الحاج عبد الغفور لم يؤثر فى حرصه على تعليم أولاده لا شك أنه يعانى عقدة نفسية ذاتية لأنه لم يتعلم ولم يدخل مدارس فى حياته .. وهى عقدة تغلبت على بخله فكان حريصاً على تعليم أولاده دون أن يسأل نفسه ماذا يريد من تعليمهم ، بل لم يكن يتخيل كما يتخيل الآباء لأبنائهم مستقبلا يتمنون لهم .. دكتور .. مهندس .. محام .. لم تكن هذه التخيلات تخطر على باله ، إنما فقط يحس بالراحة من العقدة التى يعانيها .. إن أولاده وهم قطعة منه ويحملون اسمه

يدخلون المدارس ويجيدون القراءة والكتابة .. لذلك حرص على أن يدخلهم المدارس حتى بناته الأربع .. وقد وصلت نظيرة وهى صغراهن إلى الجامعة .. بل إنها اختارت الجامعة الأمريكية .. إن نظيرة أقدر أولاد عبد الغفور على التحرر من العقدة التى يسببها لهم أبوهم .. وقد دخلت الجامعة الأمريكية ربما لمجرد إثبات شخصيتها كبنت راقية من بنات المجتمع .. وأبوها لا يحاول أن يفهم الفرق بين الجامعة الأمريكية والجامعة المصرية .. يكفى أن اسمها جامعة .. جامعة والسلام .. أما البنات الثلاث فقد تزوجن دون أن يستكملن التعليم الثانوى .. وكان أزواجهن من شباب العائلات الراقية ، ولا شك أن أقوى ما دفعهم إلى الزواج منهن هو ما يعرفونه عن ثراء عبد الغفور .. وعبد الغفور لم يكن يهمه من كل من يتقدم إلى إحدى بناته إلا أن يعرف عنه ماذا يعمل وكم يكسب ومن هو أبوه وماذا يملك .. ولكن . لقد طلقت اثنتان من البنات بعد أن فوجىء زوجاهما بمدى بخل عبد الغفور .. لماذا يعطى بناته بعد أن تزوجن .. إن لكل منهن زوجاً مسئولاً عنها يتولى أمرها .. وكان زوج البنت الثالثة هو الذى استمر بزواجه فقد كان خبيثا صابرا .. استطاع أن يقنع عبد الغفور بأن يعمل معه فى شركاته بصفته محاسباً من خريجى التجارة .. والأهم أنه قادر على انتظار الإرث ..

ومنذ دخل عبد الستار وعبد الوهاب ابنا الحاج عبد الغفور مدارس روضة الأطفال وهما بعيدان عن والدهما .. كل منهما يبحث عن مستقبله بنفسه .. إن أباهما لا يسألهما أبدا عما يجرى لهما أو عما يدرسانه . إنه فقط يسأل أحد معاونيه

سؤالا عابرا عن المدرسة التى يلتحق بها ابنه ، وقد استطاع عبد الستار أن يستمر فى التعليم حتى دخل كلية الهندسة ولكن بعد سنتين فقط وهو طالب فى كلية الهندسة سافر فجأة ليتم تعليمه فى إنجلترا .. ولا أدرى كيف أقنع أباه بأن يدفع له نفقات سفره وإقامته فى الخارج .. لا شك أنه أثار فيه الزهو بأن ابنه يتعلم فى الخارج ليكون عالما فى مستوى الخواجات .. ومنذ يومها لم يعد عبد الستار إلى مصر .. وقد قيل أنه تزوج هناك زوجة إنجليزية وأنه يعمل ويكسب ولا أحد يدرى ماذا يعمل وكم يكسب .. ربما كان كل ما وصل إليه عبد الستار وسعد به أنه أصبح قادرا على أن يعيش بعيدا عن أبيه ..

كل هذا كلام كنا نسمعه ونتداوله عن الحاج عبد الغفور البرعى وعائلته ، ولكنى لم أعرف الحاج عبد الغفور معرفة شخصية ولا ابنه عبد الستار ولا بنتا من بناته .. لم أعرف إلا عبد الوهاب .. ولم يفكر عبد الوهاب يوما فى دعوتى إلى بيته ليعرفنى بعائلته .. لم يدخل بيت الحاج عبد الغفور أحد من أصدقاء أو من معارف أولاده ..

ومنذ كان عبد الوهاب زميلا لى فى المدرسة الابتدائية وأنا أعتبره شخصية عجيبة .. كنت أحس به أحيانا كما قلت كأنه صديق حميم يلازمنى ويحكى لى .. وأحيانا يبتعد وينعزل ويحيى أحدنا الآخر من بعيد كأن ما بيننا هو مجرد تعارف .. ومنذ كنا فى المدرسة الابتدائية وأنا أحكم عليه بأنه لا يطيق العلم ولا المدرسة وقد انتقلت أنا إلى المدرسة الثانوية وبقى هو راسباً فى الابتدائى إلى أن لحق بى بعد عامين .. وكنت دائما

أتساءل .. لماذا لا يترك المدارس ويتفرغ لمشاركة أبيه فى تجارته .. ربما كانت له مواهب أبيه .. وأبوه كان يعتمد على ذكائه ولم يكن فى حاجة إلى الدراسة أو المدارس .. ولكن .. ربما كانت عقدة عبد الوهاب أنه لا يريد أن يكون كأبيه ولذلك يصمم على أن يدخل المدرسة ويحصل على شهادة ..

وكنا كلما كبرنا وأنا أزداد حيرة فى عبد الوهاب وأفاجأ منه بتصرفات تجعلنى أحيانا أعتبره مجنونا أو شاذا .. وقد التقيت به مرة ونحن فى عمر الصغار وهو يسير فى الشارع مرتديا اللبس الكامل للاعبى كرة القدم .. حذاء لعب الكورة والجوارب والبنطلون والقميص .. وقلت له وأنا أكتم ضحكتى الساخرة :

– إلى أين يا كابتن ؟!

وقال فى جدية :

– عندى تمرين ..

قلت ساخرا :

– هل أصبحت لاعب كرة .. طول عمرك كابتن يا كابتن .. ولكن أين تلعب ؟

وقال فى صوته الجاد وهو ينظر إلىّ كأنه يلومنى ويشير إلى القميص الذى يرتديه :

– ألا ترى .. إنى ألعب فى الترسانة طبعا .. تعالى معى ..

وكان فعلاً يرتدى قميص فريق الترسانة .. وقد سرت معه حتى نادى الترسانة كأنى أسير مع مجنون مستأنس .. لايمكن أن يكون لاعب كرة ويسير فى الشارع هكذا وهو مرتد ملابس الملعب .. لا شك أنه يعانى عقدة ، ربما كانت عقدته أنه يريد أن يشتهر بشىء أو يعرف بشىء .. واختار بخياله أن يعرف وأن

يشتـهر بأنه لاعب كرة حتـى دون أن يلعب الكرة .. لذلك فإنه يتعمد أن يلبس ملابس اللعب ويسـير بها فى الشارع أمام كل الناس .. وقـد دخلت مـعه نادى التـرسـانة ولم أفـاجأ عندمـا لم أجـد أحداً يعـرفه داخل الـنادى .. ولم أجد مـا يدل على أن هناك من يتدرب على اللعب .. ولم يحـاول هو أن يفسر لى أى شىء ولكنه سار بى إلى أن جلسنا مـعا على مقعد من مـقاعد مـدرج النادى وهو يتـحـدث عن الكرة .. إنه يتـتبع فـعـلا كل مباريات كرة القدم ، وربما كان يفهم اللعب ولكنه لم يلعب أبدا إنما اكتفى أن يسير فى الشارع كأنه لاعب كرة ..

وقد كنا أيامهـا فى الخامسة عشرة من العـمر .. وبعد عام واحد وجدت عـبد الوهاب فى حالة أخرى .. لقـد أصبح يتردد كل يوم عند الظهـر إلى بار فى حى الزمالك .. وهو بار مـغلق الأبواب بحـيث لا يسـتطيع من يـمر بـه أن يرى من بداخله .. وهو الذى صحبنى إلى هذا البار وطلب بمجـرد جلوسه زجاجة من البيرة لنفسـه ولم يسألنى ماذا سأطلب أنا .. كل منا يطلب لنفسه ويدفع حساب نفسه .. وقد شرب زجاجة البيرة بسرعة وطلب زجاجة ثانية ثم زجاجـة ثالثة ثم زجاجة رابعة دون أن يستمع إلىّ وأنا أنصحه بأن يكف عن شـرب البيرة .. وقد قام بعد ذلك ولم يكن يترنح فى خطواته ترنحاً فـاضحاً ولكنه كان يهـتـز .. وقـد علـمت أنه يذهب إلى البـار كل يـوم فى الظهـر ولا يشرب إلا البيرة إلى أن يشبع فـيعود إلى البيت وينام إلى أن تتبخر البيرة من رأسه ..

إلى أن مـر عام آخـر ودخل عبـد الوهاب فى حالة جـديدة وهى الحـالة التى لا تزال مـتـمكـنة منه حـتى اليـوم .. حـالة

التـدين .. لقـد تدين حـتى أصـبح غـارقـاً كله فى الدين .. إنه يقضى كل أوقاته بعد المدرسة فى الجامع .. ويقرأ دائماً القرآن والتـفـسـيرات ، وإذا أراد أن يذاكـر فـإنه يذاكـر أيضـا داخل الجـامع .. وقد وصل به الـتزمت إلى حـد أن أطلق لحـيتـه ثم حلقـها ثم عـاد وأطلقهـا .. ويدخل فى مناقشـات طويلة .. هل إطلاق اللحيـة سنة مفروضـة أم سنة اختـيارية .. هل من حق الرجل أن يكشف عن شعـر رأسـه أم أن السنة تحرمـه .. وكان أحيانـاً يضع على رأسه طاقية أقـرب إلى اللبدة التى على رأس أبيه وأصـبح مصراً بعـد أن يعود من المدرسـة أن يخلع البدلة ويرتدى جلبابا يخرج به إلى الشارع .. إنه يرتدى البدلة مرغماً فى المدرسـة ولكن ارتداء البـدلة حـرام .. ليـست من شـرائع ولا مظاهر التدين .. البـركة كل البركة فى الجلبـاب .. والمظهر الذى يصون شـخصـية وكـرامة المتدين هـو ألا يبدو إلا داخل الجلباب ..

وكنت قد سبقت عبد الوهاب بسنوات وحصلت على الثانوية العامة والتحقت بكلية الهندسـة .. أما هو فقد مضى عليه تسع سنوات وهو لا يزال فى الدراسة الثانوية .. ثم فجأة ودون أن يحـصل على الثـانوية سـافـر إلى الخـارج .. ولا أدرى كـيف استطاع أن يقنع أباه بالإنفاق عليه فى الخارج .. ربما كان الأب يدارى عـقدته بالتظاهر والتـباهى بأن له أولادا فـى الخارج .. ربما أراد أن يعطى عبد الوهاب ما أعطاه لابنه عبد الستار الذى يقيم فى الخارج ويتفاخر به ..

وقد سـافر عبـدالوهاب دون أن يقول لى .. ولكنى سـمعت من بقية الأصـدقاء الذين يعرفونه .. وكنت أسـمع أنه يقيم فى

لندن .. ثم سمعت أنه انتقل إلى باريس ثم إلى سويسرا .. ولم يحدث أن أرسل لى أى خطاب أثناء سفره .. إلى أن التقيت به بعد أربع سنوات فى شوارع الزمالك .. واحتضننى فى شوق وفى لحظة أحسست به يعطينى كل أحاسيس الصداقة كأننا لم نفترق .. واكتشفت بسرعة أنه قد عاد دون أن يتغير .. إنه لا يزال مغرقاً فى التدين ولحيته تتدلى من تحت ذقنه .. ويردد الشعائر خلال كلامه .. ولكنه لا يرتدى الجلباب .. إنه يرتدى بدلة .. لعل ذلك من تأثير إقامته فى أوربا .. ولم يقل لى خلال هذا اللقاء أنه حصل على شهادة ما من أوربا أو تخصص فى علم من العلوم أو مهنة من المهن .. وأنا لم أسأله:

وخلال كل هذا العمر الطويل لم أعرف لعبد الوهاب أى علاقة نسائية .. لا علاقة عاطفية مع فتاة .. ولا علاقة جنسية مع امرأة .. بل إنه لم تكن سيرة البنات تأتى أبدا فى كلامنا .. ولم ألحظ عليه أبدا أنه يتطلع إلى أى امرأة ونحن نسير فى الشارع مهما كانت هذه المرأة مثيرة .. حتى عندما كنت أدعوه ليأتى معى إلى النادى لم تلفت نظره أى « بنت » ، ولم يحاول أن يتقصى عن أى بنت .. بل لم يكن يتحدث عن البنات كحديث نتسلى به ونضحك ، وعندما كان يجلس بيننا ونطلق مثل هذا الحديث يدير وجهه عنا ويسكت .. حتى بعد أن سافر إلى أوربا .. لقد عرفت أنه كان يقيم هناك دائماً فى البنسيونات التى تجمع طلبة مصريين وعرباً .. وكان الطلبة يصحبون النساء إلى البنسيون ويجالسونهن علناً ثم يشد كل طالب المرأة التى يصحبها إلى فراشه .. وكان عبد الوهاب يثور .. ويرفض

أن يشارك أصدقاءه لهوهم ومتعتهم .. ويدخل غرفته ويغلق على نفسه الباب ويقضى الليل يصلى ويستغفر الله .. وأنا أكاد أكون واثقاً متأكداً أن عبد الوهاب رغم أنه الآن فى الثلاثين من عمره لا يزال بكراً لم يمس امرأة ..

ولكن يبدو أن أوربا تركت أثراً فى عقلية عبد الوهاب وأحاسيسه بالمرأة .. لقد بدأ فى أحاديثه معى يمتدح المرأة الأوربية .. إنه يقول إنها إنسانة كاملة الشخصية .. واستطاعت أن تصل إلى القوة التى تصون بها نفسها وتفرض إرادتها على الرجل المتجنى ..

وأخذ يتحدث طويلاً عن إعجابه بشخصية المرأة الأوربية دون أن يتحدث عن مستوى جمالها .. وقلت له ضاحكا :

– قل لى يا عبده بصراحة .. ألم تكن لك علاقة بواحدة من هناك ؟!

وقال وهو ينظر إلىّ فى لوم :

– إذا كانت علاقة بالمعنى الذى أعرف أنك تقصده فلا وأستغفر الله .. ولكنى طبعاً عرفت الكثيرات معرفة طاهرة نظيفة .. إنهن لا شك شخصيات كاملة ..

قلت فى خبث :

– ألم تغرك واحدة منهن ؟!

قال فى لهجة جادة :

– إن الله سبحانه قدرنى على مقاومة الإغراء وقدرنى على مقاومة نفسى .. والحمد لله ..

قلت وكأنى ألح عليه :

– ألم تغرك واحدة منهن بالحلال .. أى الزواج ؟

وقال مبتسماً وكأنه يحادث نفسه :

- إنهن ناقصات .. ولا أريد أن أقول إنهن ناقصات عقلاً ولكنهن قطعاً ناقصات ديناً .. وإخوتى البنات يلححن علىّ منذ عدت بأن أتزوج .. وقد قلت لهن أنى أتمنى أن أجد من أتزوجها ولها شخصية المرأة الأوربية .. قوتها .. وعلمها .. واحتمالها للمسئولية .. ولكنى أريد كل ذلك فى امرأة مصرية متدينة .. فالإيمان هو أساس سلامة كل بناء للشخصية ..

ويومها لم أقتنع من كلام عبد الوهاب إلا بأنه أعجب بجمال وقوام نساء أوربا لذلك أعجب بهن ..

●●●

وكنت أعيش كل هذه الذكريات التى أستعيد بها شخصية عبد الوهاب البرعى وأنا فى دهشة لما فوجئت به من إقدامه على الزواج من فتاة أمريكية .. لا شك أنه يتزوجها لأنه وجدها مسلمة .. لقد استكملت فى تقديره العقل والدين .. عقل بنات أوربا وديننا ..

وتعمدت أن أرتدى البدلة كاملة وأن أعلق الكرافت .. فإنى ذاهب فى لقاء رسمى لإعلان خطوبة صديقى .. وقد جاء فى موعده تماماً .. واتجهنا مباشرة وركبنا سيارتى .. إن عبد الوهاب ابن المليونير المعجزة عبد الغفور البرعى لا يملك سيارة ولم يملك فى حياته سيارة ، بل إنه لا يعرف كيف يقود سيارة .. إن أباه مقتنع بأن من يريد من أولاده سيارة فليشترها من ماله بعد أن يكون له مال ..

وقلت وأنا أقود سيارتى وبجانبى عبد الوهاب صامتاً ساهماً :

– ما اسم خطيبتك ..

ونظر إلىّ كأنه يلومنى لهذا السؤال وكأن ليس من حقى أن أعرف اسم خطيبته .. لا يصح .. عيب .. ولكنه عاد وقال :

– اسمها أمينة .. أصبح اسمها أمينة ..

قلت وأنا لا أهتم بلومه :

– هل تعمل .. أم أنها هنا للفسحة والسياحة ؟!

وقال باختصار وبصوت عصبى :

– إنها دكتورة .. طبيبة ..

وسكت .. ووجدت نفسى أقود السيارة بسرعة تفوق ما تعودته ، وأبذل مجهوداً حتى لا ترتعش يداى فوق عجلة القيادة .. أحس كأنى مقدم على عملية خطيرة مثيرة .. وأحس باندفاع صارخ لرؤية هذه الدكتورة الأمريكية .. أريد أن أراها وأعرفها وأحس كأنى فى طريقى إلى الكشف عن أسرار .. ونقطة ضعفى التى أتعبتنى فى كل حياتى هى إدمانى لهواية الوصول إلى الأسرار ..

٢

كان أول ما فوجئت به أنى لم أجد فى البيت أى مظهر من مظاهر الاستقبال التى تتطلبها مناسبة إعلان خطوبة .. كنت أنا وعبد الوهاب وحدنا يرتدى كل منا بدلة ورباط عنق .. فبدونا كأننا غرباء .. واستقبلتنا فوزية صاحبة البيت استقبالا عاديا كأن ليس هناك أى مناسبة تشيع فرحة الترحيب .. بل إنها لم تفاجأ بى رغم أنه قد مضى أكثر من أربع سنوات منذ سافرت إلى أمريكا وعادت دون أن ألقاها وهى جارتى وصديقتى منذ أيام الطفولة .. ربما غيرتها حياتها فى أمريكا فلم تعد تحس بالشوق أو تندفع مرحبة .. وكانت ترتدى قميصاً عادياً وبنطلوناً كأن ليس هناك ما يستحق أن تتعب نفسها وتتزين من أجله .. ثم صافحت زوجها مؤنس خلف الله .. الدكتور مؤنس .. وكان هو الآخر لا يبدو أنه يحتفل بمناسبة ولا حتى باستقبال ضيف .. إنه يرتدى بنطلون شورت كأن لا أحد غريب فى بيته .. ولكنه كان أكثر حرارة فى الترحيب بى .. ثم دهشت عندما وجدت ابنة عمى خيرية ..

إنى أعلم أنهـا تعرف فوزية ولـكنى لم أكن أنتظر أن تكون بين المدعـوات .. ربما لم تكن هناك دعـوات على الإطلاق .. إنما هى مجـرد زيارة عادية .. واقتـربت خيرية منى تصـيح من خلال ابتسامة واسعة :

– أهلاً أبيه حسين ..

وقبّلتها على جبينها قبلة أخوية كعادتنا وأنا أركز عينى على فتاة أخرى لا أعرفها .. وتقدمت منـها أصافحها ، وقالت فوزية وهى بجانبى :

– ألا تعرفها .. إنها نظيرة أخت عبد الوهاب ..

وقلت وأنا أملأ منها عينى :

– أهلا ..

وقالت نظيرة وهى تبتسم ابتسامة مرحة :

– إنى أعرفك بالسمع .. أخى يحدثنى عنك كثيراً ..

وبقيت عيناى معلقـتين بها وأنا أحس بالدهشة .. إنى أحس منذ اللمحـة الأولى بأنها شىء آخر غيـر أخيها عـبد الوهاب .. إنهـا حلوة .. حـلاوة بنت البلد .. سـمـراء طويلة وكل مـا فى وجهـها يضج بالمرح ، ونظـراتها جريئـة .. وعقـصة شـعرها الطويل مثيرة .. وإن كانت عقـصة على النمط الشعبى المعروف لا يبدو فيها مجهود إعدادها عند أحد مصففى الشعر .. وثوبها عـادى طبـيعـى .. ثوب زيارة عاديـة .. لا يبدو أنـها تعـمـدت اختياره بمناسبة إعلان خطبة أخيها ..

وشددت عينى عنها لأبحث عن الفتاة التى جئت من أجلها .. الفتاة الأمريكية المسلمة التى يخطبها عبد الوهاب .. أمينة .. أين هى ولاحظت أن عـبد الوهاب كـان قـد ابتعـد عنى .. ثم لمحت

ظهره وهو جالس فى الشرفة المواجـهة وبجانبه فتاة .. لا شك أنها هى ..

وشدتنى فوزية إلى الشرفة وهى تقول ساخرة :

– تعـال لأقدمـك إلى الفتـاة التى جـئت أنت وصـديقك من أجلها .

ثم قالت وأنا أمد يدى مصافحاً :

– روز مارى .. أقصد أمينة ..

وقالت أمينة فى برود وهى تصافـحنى دون أن تقوم واقفة من على مقعدها :

– هاللو ..

وقلت مبتسماً مردداً لهجتها الأمريكية :

– هاللو ..

ثم التفت إلى عبد الوهاب كأنى ألومه .. إنها ليست جميلة .. ليس فـيـها شىء مما كنـت أتخيله مـن جمـال بنات أمـريكا .. ولا حتى نسبة متواضعة من مـلامح هذا الجمال .. إنها رفيعة ووجهها ممصوص وعيناها ضيـقتان غائرتان وشفتاها خطان رفيعان يكادان لا يظهران فوق جلدها .. ربما كان ما يميزها هو جبينها الواسع المرتفع كأنه كل وجهها ..

إن الجبين العـالى يدل على العبقرية وربما كـان كل ما شد عبد الوهاب إليـها هو عبقريتـها .. وكانت ترتدى ثوباً فى لون أزرق غـامق ينعـكس فـوق لونهـا الأبيض الفـاقع المـسـوخ لا يخفف من بياضه قطرة دم من اللون الأحمر .. لون الورد .. وكان ثوبـاً يغطى كل صدرها ويرتفع حـتى عنقهـا ، وأكمـامه طويلة تمتـد حتى رسـغيـها وهو ثوب طويل يصل حـتى وهى جالسة إلى قدمـيها .. وكانت تضع فوق رأسهـا طرحة ملفوفة

من اللون الأزرق أيضاً تغطى كل شعـرها .. لا شك أنها متأثرة بما فهمته من تعاليم الإسلام ..

وقالت لها فوزية بلغة إنجليزية ولهجة أمريكية :

– أمينة .. تعالى يجب أن نعد شيئا نقدمه ..

كأنهما لم يحسبا حساب زيارتنا قبل أن نصل ..

وقامت أمينة فوراً خلف فوزية وهى صـامتة .. كأنها تلقت أمراً لا تستـطيع أن تجادله .. وتـتبعـتهـا وهى تجرجر ثـوبها الطويل بين قدميها .. ثم قلت لعبد الوهاب :

– الا تتكلم أمينة العربى ..

وقال عبد الوهاب وفى عينيه لمحة فرحة :

– إنهـا تتكلم العربى وترتـل آيات القرآن بالعـربى .. ولكن طبعاً لغتها الأصلية هـى الإنجليزية ..

قلت وأنا أبحث عن كلام :

– لقد كانت فوزية تكلمها بالإنجليزية .. لهذا سألتك ..

وقال عبد الوهاب مبتسماً :

– إنهما يتكلمان بحكم التعود فقد عاشا معاً فى أمريكا أربع سنوات ، وأمينة لم يمض عليها فى مصر سوى ثلاثة أشهر ..

وقلت فى صوت خفيض كأنى أهمس :

– هل أعلنت إسلامها فى أمريكا ..

وقال عبد الوهاب وهو يهمس أيضاً كأنى عدوته بالهمس :

– لا .. أسلمت بعد أن جاءت إلى مصر ..

وكنا جالسين وحدنا فى الشرفـة فجاء إلينا الدكتور مؤنس يدعونا إلى الداخل قائلاً ضاحكاً :

– إعـداد مـا يقـدم لنا على وشك أن يتم .. تعـالوا قـبل أن يفوتنا القطار ..

وقمنا إلى الداخل وكل عقلى ممتلىء بأمينة .. هذه المرأة الأمريكية المسلمة .. إنى بعد أن رأيتها ازدادت حيرتى فيها واشتد إحساسى بأنى مقبل على عالم أسرار .. ولكنى بمجرد أن تركت الشرفة وجدت نفسى وقد انشغلت بنظيرة أخت عبد الوهاب والابنة الوحيدة للحاج عبد الغفور البرعى التى استطاعت أن تستمر فى التعليم إلى أن وصلت إلى الجامعة الأمريكية .. إنها شخصية غير ما كان يمكن أن أتصوره لابنة الحاج عبد الغفور .. إنها هى التى تتكلم كل الكلام ونحن جلوس معها .. إنها تحكى عن دراستها ونوادر الجامعة .. وأنا أزداد إعجاباً بها .. إلى أن دخلت علينا فوزية وبجانبها أمينة يجران مائدة صغيرة تحمل معدات الشاى وإبريقاً من عصير الليمون وطبقاً من البسكوت وتحمل أيضا بعض الزجاجات .. زجاجة كمبارى وزجاجة جين .. كأن البيت يعترف بالحرية .. لك حق ألا تشرب الخمر ولك حق أن تشرب ..

وفوزية شربت كمبارى وشربت معها .. وزوجها مؤنس شرب من زجاجة الجين .. وكل الباقين اكتفوا بالشاى .. وأمينة اكتفت بشرب الليمون .. وقد حدث أن مد الدكتور مؤنس يده إلى زجاجة الصودا ليضيف منها إلى كأسه فقامت أمينة تساعده وما كادت تلتقط زجاجة الصودا وتهم أن تصل بها إلى مؤنس حتى قال عبد الوهاب فى صوت كأنه زئير الأسد :

– حرام ..

وبسرعة ألقت أمينة الزجاجة من يدها بينما لوت فوزية شفتيها كأنها ساخطة ثم قالت ساخرة باللغة الإنجليزية كأنها مغتاظة :

– ستكونين زوجة مطيعة ..

وكنا نتبادل الأحاديث العائمة ونظيرة مشتركة معنا دائماً .. إلى أن قالت :

– إن ثوبك أطول من المعقول يا أمينة ..

ونظرت أمينة إلى أطراف ثوبها ولم تتكلم وقال عبد الوهاب فوراً :

– هذا ثوب المرأة كما يجب أن يكون .. إنها أكثر إيماناً منك ..

ولم ترد أخته نظيرة ولكنها ضحكت ، ولكن فوزية قالت فى غل :

– ليس أحدهما أكثر ولا أقل إيماناً من الأخرى .. إن الإسلام يعترف بحرية الفرد فى حدود تعاليمه .. ونظيرة حرة فى تقصير ثوبها متراً وأمينة حرة فى إطالة ثوبها مترين .. ما دام الثوب لا يكشف عن عورة ..

وكانت تتكلم بلهجة الأستاذة المتأكدة من ثقافتها ..

وقالت نظيرة كأنها تريد أن تنقذ الموقف :

– لنتكلم فى الأهم .. والأهم أن نتفق على يوم إعلان خطوبة أخى عبد الوهاب وأمينة ..

وقالت فوزية فى ازدراء :

– اتفقوا ..

وقال مؤنس فى مرح :

– لماذا لا تتم الخطوبة اليوم .. الآن .. منذ أسابيع وهما يدوشاننا بقصتهما ..

وقالت نظيرة ضاحكة :

– لابد أن يكون لإعلان الخطوبة فرحة وحفلة ..

وقال مؤنس :

- إن الفرحة فـرحتهمـا .. ما لنا وما لهم .. ونوفر التـقاليد القديمة التى بليت ونسيناها ..

وقالت فوزية ساخرة ملتفتة إلى عبد الوهاب :

- هل معك الدبل ؟!

وتنحنح عبد الوهاب كأنه يهم أن يلقى خطاباً طويلاً :

- إنى لا أريد إعـلان خطوبة .. لـيـست الخطوبة شـريعـة مفروضة .. لنعلن الزواج مباشرة .. لنتزوج ..

وقالت أمينة ضاحكة :

- لك حق ..

وقالت نظيرة وهى تضحك كأنها لا تصدق ما تسمعه :

- ومتى يكون الزواج ..

وقال عبد الوهاب فوراً :

- الآن .. نرسل فى اسـتـدعــاء المأذون وعلى بركـة الله .. أو على الأكثر غداً ..

وصاحت أمينة :

- لا .. مستحيل .. إنى لست مستعدة للزواج الآن ولا غداً ..

وقالت لها نظيرة ضاحكة :

- متى يا عروسة ..

وقالت أمينة وهى تحنى رأسها كأنها خجولة :

- ليس قبل أسبوعين ..

ودارت الأحاديث والمناقشات بيننا وكلها تنبض بالسـعادة والمرح ، وإن كانت فـوزية هى دائما أكثـرنا جدية فى حديثـها حتى أنهـا كان يبدو عليـها أنهـا لا ترحب بهذا الزواج .. ثم تم الاتفـاق نهائيـاً على أن يتم الزواج بعد أسـبوعـين .. وفى ليلة الجمعة احتراماً للتقاليد ..

وقمت منصرفاً بعد أن عرضت على ابنة عمى خيرية أن أوصلها بسيارتى .. كنت أريد أن أعرف منها شيئاً عن روزالين .. أقصد عن أمينة .. لابد أنها تعرف عنها شيئا .. وكنت أقدر أن عبد الوهاب يريد أن يبقى مدة أطول مع عروسه ، ولكنه استوقفنى وجاء معى بعد أن صافح الجميع مصافحة رسمية .. حتى عروسه لم يقل لها كلمة أكثر مما قاله .. وطبعاً لم يحاول أن يقبلها كما جرت العادة بين عريس وعروسه بعد أن اتفقا على ليلة الزفاف .. أما أخته نظيرة فقد فضلت أن تبقى .. وستعود إلى البيت وحدها .. إنها تريد أن تتحدث أكثر مع العروس .. ونظرت إليها كأنى ألومها وابتسمت لها مودعاً من بعيد .. إنى أحس باهتمام كبير ناحية نظيرة ..

●●●

وقلت لعبد الوهاب وهو ينزل من سيارتى أمام باب عمارتهم :

– دعنى أراك .. غداً فى النادى ..

وقال مبتسماً :

– سأمر عليك فى السابعة مساء ..

إنه ليس عضواً فى النادى ولا يحب التردد عليه .. وكانت هذه أول مرة نحاول فيها أن نتواعد على لقاء بعد أن تعودنا على لقاءات المدرسة أو لقاءات الصدفة .. ولم أكن قد قررت أن أعتمد على عبد الوهاب لأصل منه إلى السر .. إنه يبدو كأنه لا يعرف شيئا إلا أن أمينة خطيبته مسلمة .. ولكنى كنت أريد أن أوطد صداقتى معه .. أصبحت أحس كأنى فى حاجة إليه ..

وما كدت أبتعد بسيارتى حتى سألت ابنة عمى خيرية فى لهفة :

- هل تعرفين هذه الفتاة الأمريكية ؟
وقالت ضاحكة :
- أعرفها منذ جاءت إلى مصر وأقامت عند فوزية ..
وقلت فى صوت ملهوف :
- ولماذا جاءت إلى مصر ؟
قالت من خلال ابتسامة تخفف من ضحكتها :
- لا أدرى .. إن كل ما تقوله أنها أحست بأنها تريد أن تجىء إلى مصر وصممت على أن تجىء إلى مصر ..
قلت ملحاً :
- ولماذا تقيم عند فوزية ..
قالت وهى تهز كتفيها كأنها لا تصدق ما ستقوله :
- لقد كانتا صديقتين جداً فى أمريكا .. كانتا تقيمان فى عمارة واحدة .. وكان من المفروض أن تقيم معها عندما تأتى إلى مصر .. هذا كل ما يقال لنا ..
قلت وكأنى أنهر خيرية لأنها لا تستطرد فى حديثها :
- وماذا عرفت عنها ؟
وقالت خيرية ولهجتها ساخرة :
- إنها طبيبة متخصصة فى علاج اللثة .. ولكنها لا تستطيع أن تمارس الطب حتى الآن فى مصر لأنها لم تحصل على إذن .. لذلك فقد التحقت بالعمل كسكرتيرة فى مكتب إحدى شركات البترول الأمريكية حتى تحصل على ما يكفل لها مصاريف إقامتها .. وفى الوقت نفسه تحاول أن تتعرف وتصادق أطباء الأسنان .. لأن طبيب الأسنان يستطيع أن يصل بها إلى ممارسة علاج اللثة .. وفوزية متحمسة لها جداً .. ولكنها إنسانة عجيبة حتى أنى لا أصدق أنها طبيبة رغم أن

حديثها يدور معظمه عن أيام دراستها .. وفى يوم اتصلت بفوزية وقلت لها إنى أريد أن تزورنى روزالين لأنى أحس بالتهاب فى لثتى .. وكانت فوزية تقوم لها بالدعاية فعلا كطبيبة .. ولكنى فى الواقع لم أكن فى حاجة إلى علاج لثتى ولكنى كنت أريد أن أعرف روزالين أكثر .. أن أتفرج عليها من شدة ما كنت أتعجب منها .. وكان ذلك فى الأيام الأولى لوصولها ولم تكن قد أعلنت إسلامها بعد ولم يكن اسمها قد أصبح أمينة بدلا من روزالين .. وقد جاءت إلىّ فى الحال وهى تحمل حقيبتين .. حقيبة صغيرة وحقيبة كبيرة .. وفتحت الحقيبة الصغيرة وقبل أن تمد يدها إليها طلبت منى أن أفتح فمى وأخذت تكشف على لثتى وتتحسسها بأصابعها ثم أخرجت من الحقيبة الصغيرة أدوات تعينها على الكشف .. وكل من فى البيت قد التف حولنا يتفرج على هذه الأعجوبة الأمريكية .. إلى أن انتهت من الكشف وأوصت بالدواء .. ثم أغلقت حقيبتها الصغيرة وجلست بيننا كصديقة وقالت مبتسمة :

– أليس بينكم من هو فى حاجة إلى حذاء ..

وفوجئنا ودهشنا بما تقوله ، وقبل أن نرد عليها مدت يدها وجذبت الحقيبة الكبيرة وفتحتها وإذا بها مزدحمة بعدد من الأحذية .. أحذية رجالى .. وأحذية نسائى .. وأحذية أطفال .. ورفعت عينيها إلينا تستعرض دهشتنا ، ثم قالت فى بساطة وهى تبتسم :

– إنى أبيعها ..

وضحكت ابنة عمى خيرية وهى تهز رأسها تتعجب لذكرى هذا اليوم بينما أنا أقود السيارة وقد فغرت شفتى من

الدهشة .. كأنى أسمع قصة غريبة مثيرة .. إلى أن عادت خيرية تحكى :

- لقد أخذنا نقلب فى الأحذية بأيد ترتعش من الدهشة .. بينما هى تتحدث بانطلاق عن البضاعة التى تعرضها كأنها تاجرة محترفة : هذه أحذية أمريكية من بلد أمريكى .. وهذا الجلد كذا .. وهذا النعل كذا .. وقد سألناها يومها ..

- لماذا أتيت بالأحذية من أمريكا لتبيعيها فى مصر ..

وسكتت برهة كأنها فوجئت بالسؤال ثم شدت ظهرها وقالت فى لهجة متعالية :

- إنى من عائلة تتاجر فى الأحذية ..

ولم نسألها أكثر من ذلك .. وقد اشتريت منها حذاء .. والحقيقة أنه لم يعجبنى شىء من هذه الأحذية ولكنى اشتريت مجاملة لها ولعلها مجاملة تحمل إحساسى بالتعجب والإشفاق .. وقد دفعت لها الثمن الذى حددته .. ثمانية جنيهات للحذاء الذى اشتريته وخمسة جنيهات أتعاب الكشف على لثتى ..

وقاطعت خيرية ملهوفاً :

- ألا تزال تتاجر فى الأحذية ؟

وقالت خيرية ضاحكة :

- لا .. لقد باعت ما كان معها ولم تسافر إلى أمريكا لتعود بشحنة أخرى من الأحذية ..

وكنا قد وصلنا إلى بيت ابنة عمى وقلت لها ملحاً :

- سأركن السيارة وأصعد معك لتحكى لى المزيد ..

وقالت ضاحكة :

- ليس لدى المزيد .. إن روزالين شخصية لا تستطيع أن

تكتشفها بسهولة .. وهى تصمت طويلاً .. قد تقضى الجلسة كلها وهى صامتة .. وقد تتكلم فإذا تكلمت فإنها لا تسكت عن الكلام .. وكل كلامها ينصب على آراء ودراسات لا تفهم منها شيئاً .. أما فوزية فهى لا تحب أن تتكلم كثيراً عن صديقتها روزالين ، وإذا تكلمت لا تجد فى كلامها شيئا غريباً .. كأن روزالين مجرد ضيفة عادية من أمريكا .. لذلك فلن تجد عندى ما يشبع لهفتك .. وتصبح على خير .. لا تعذبنى بإلحاحك يا ابن عمى ..

وفتحت باب السيارة وجرت إلى البيت ضاحكة كأنها تغيظنى ..

●●●

كنت أعلم أنى لن أستطيع أن أكتشف أسرار روزالين إلا إذا كشفتها لى فوزية الباجورى .. وأنا أعرف فوزية منذ كنا صبية .. كانت جارتنا .. وأهلى متعارفون بأهلها .. وكانت لها شخصية تميزها عن كل بنات الحى .. كانت شخصية أقرب إلى شخصية ولد لا بنت .. كانت تبدو دائماً عنيفة ونظراتها تنطلق فى جرأة .. وكانت إذا وجدتنا نلعب الكرة فى الشارع أصرت على أن تلعب معنا .. وإذا وجدتنا فى مشاجرة مع أطفال ونضرب بعضنا بعضاً حشرت نفسها معنا فى المشاجرة .. حتى بعد أن أصبحت شابة رأيتها يوما فى النادى الأهلى تتدرب على رفع الأثقال .. ثم علمت أنها تلعب الشيش بالسيف .. ويغلب عليها دائما ومنذ صغرها طابع وذوق الأولاد .. إنها تقص شعرها دائما بحيث يصبح قصيرا كشعر الأولاد .. ودائما بالبنطلون والقميص ونادراً ما كنا نراها بالفستان .. والمهم أنها كانت دائماً تصر على فرض شخصيتها

على البنات وعلى من تعرفهم من الأولاد .. كأنها كانت تحاول دائماً أن تكون الزعيمة .. وتختار بنتاً من البنات وتفرض شخصيتها عليها حتى تبدو هذه البنت كأنها قد استسلمت لفوزية استسلاماً كاملاً .. وقد يمر عام أو عامان وهذه البنت مستسلمة إلى أن تبتعد مرة واحدة وتكون فوزية قد اختارت بنتاً أخرى تستسلم لها .. من يدرى .. ربما كانت روزالين هى البنت المستسلمة الآن .. وحتى بين الأولاد كانت فوزية تختار ولداً تستطيع أن تفرض عليه شخصيتها .. وفوزية ليست جميلة حتى تفرض شخصيتها باستغلال جمالها .. إنها سمراء قاتمة وتقاطيع وجهها ليست مثيرة وإن كان قوامها دائماً رائعاً ولكن أهم ما فيها أنها جذابة .. وذكية .. وبجاذبيتها وذكائها كانت تختار دائماً ومنذ صغرها ولداً ثم شاباً تفرض عليه شخصيتها ويلازمها .. وتترك الإشاعات ترسم قصة حب لها مع هذا الشاب .. رسمت الإشاعات لها فى يوم من الأيام صورة حب لها مع صديقنا محيى .. ثم ذهب محيى وأصبحت القصة مع صديقنا عادل .. إنها دائماً مرتبطة بقصة .. قصة مع ولد وفى نفس الوقت قصة مع بنت ..

وكان ذكاء فوزية يوفر لها النجاح فى دراستها إلى أن التحقت بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية .. ولكنها بعد أن تخرجت لم تعمل فلم يكن من أهدافها ولا من احتياجاتها أن تعمل .. وهى لا تقدم على أى خطوة إلا إذا كان لها هدف تحتاج إليه .. وكانت فى حاجة إلى الزواج ، وكانت أصبحت فى قصة حب مع مؤنس فتزوجته .. وتفرغت للزواج محتفظة بكل شخصيتها وكل حريتها .. إلى أن تقرر أن يسافر مؤنس إلى أمريكا فى بعثة دراسية وسافرت معه .. وعادا بعد أربع

سنوات وبعد أن حصل زوجها على الدكتوراه وهى أيضاً حصلت على ماجستير فى إدارة الأعمال .. وربما التحقت بالجامعة هناك لا لأنه كان من هدفها أن تعمل ولكن فقط لكى تشغل وقتها فإن الحياة فى أمريكا لا تطاق إذا لم يكن لك عمل يزدحم به الوقت .. لذلك فهى لم تحاول أن تلتحق بأى عمل بعد أن عادت ، بل إنها لا تفرح ولا ترحب بأن تنادى بلقب الدكتورة فوزية ، وقد كانوا ينادونها بهذا اللقب رغم أنها لا تحمل سوى شهادة ماجستير .. إنها كلها متفرغة لبيتها ..

هذه هى فوزية كما أعرفها وأغلب ما أعرفه سمعته عنها فإننا بعد أن تخطينا صبانا لم تعد تجمعنا صداقة مستمرة .. ربما لأنى كنت دائما أعتبرها إنسانة غريبة وإنسانة صعبة .. وربما كانت هى لا تحاول الارتباط بى بصداقة لأنى لم أكن أحقق لها هدفاً تحتاج إليه .. ولكن كان لنا من أهل الحى أصدقاء كثيرون مشتركون وكنا ندعى إلى دعوات كثيرة تجمعنا .. وكنا دائماً عندما نجتمع يفرح كل منا بالآخر فرحة ذكريات الصبا ..

وأنا الآن فى حاجة إليها .. وربما كانت تبدو حاجة تافهة فماذا يهم من معرفة أى شىء وكل شىء عن روزالين .. ولكنها بالنسبة لى حاجة ملحة لا لأطمئن على مستقبل صديقى عبد الوهاب الذى سيتزوج روزالين فحسب ، ولكن لأننى كما قلت مصاب بإدمان الكشف عن الأسرار ..

وفى اليوم التالى لزيارتنا لفوزية حادثتها فى التليفون وتعمدت أن يكون حديثاً عن ذكرياتنا وعن الأحداث التى قد تهمها وعن أهلى وأهلها دون أن أثير موضوع روزالين وزواجها من عبده .. كنت أحاول متعمداً أن أستعيد صداقتنا

قبل أن أستغلها فى الكشف عن الأسرار .. وقد أحسست بأنها سعيدة بأحاديثنا .. وتضحك كلما ذكرتها بواحد من أصدقائها القدامى .. أو كلما عايرتها بأنها لم تستطع أن تكون لاعبة كرة .. والأحاديث التليفونية تعددت إلى أن قلت لها :

– متى أستطيع أن أراك ؟

قالت فى بساطة :

– تستطيع أن تأتى لزيارتى فى أى وقت ..

قلت ضاحكاً :

– سأزورك بصفتى صديقك لا صديق عبد الوهاب كما استقبلتنى عندما زرتك فى المرة السابقة ..

قالت وهى تضحك :

– وسأستقبلك لأنك جئت لى لا للفرجة على روزالين .. أمينة .. إنى لم أتعود بعد على أن أسميها أمينة ..

قلت مداعباً :

– إذا كان من الصعب عليك التعود فابذلى مجهوداً أكبر حتى تتعودى علىّ ..

وكنت أحس وأنا أقول هذا الكلام أنى أنافقها .. أحاول أن أجذبها إلى صداقتى حتى تطمئن إلىّ أكثر .. وقد حددت موعدا لزيارتى فى العاشرة صباحا .. أريد أن أراها وهى وحدها بعيدا عن زوجها حتى أستطيع أن أجذبها أكثر إلى الحديث . وليس بيننا ما يمكن أن يثير الشك إذا قابلتها وحدها .. وقالت مرحبة فرحة :

– لتكن الساعة الحادية عشرة حتى أكون قد انتهيت من مطالب البيت ..

إنها ست بيت متفرغة كأنها لا تحمل شهادة الدكتوراه أو الماجستير من أمريكا ..

●●●

وذهبت فى الموعد ..

وما كدت أهم بدخول باب العمارة الكبيرة حتى وقفت مشدوهاً وعيناى تبحلقان فى دهشة ، واضطررت أن أستند على الجدار حتى لا تقذف بى الدهشة على الأرض ..

إن روزالين أمامى عند الرصيف .. وهى مرتدية ثوبها الذى يغطيها من أول عنقها حتى قدميها ، وشعرها مغطى بالطرحة الملفوفة .. وهى تهم أن تركب موتسكل تمسك بحافته بين يديها ..

ورأتنى من بعيد وصاحت :

– هاللو ..

ثم رفعت ساقها وهى تمسك بثوبها وركبت الموتسكل .. وارتفع صوت الموتور كأنه زغرودة صارخة .. وانطلقت تجرى به فى الشارع إلى أن اختفت ..

واستطعت أن أفيق من دهشتى وهززت رأسى حتى أطرد ذهولى وأتخلص من المفاجأة .. لماذا أصدم وأنا أراها تركب الموتسكل .. إن بنات أمريكا يركبن الموتسكلات حتى لو كن فى القاهرة ..

٣

لم يكن من السهل جذب فوزيـة للتحدث عن روزالين .. إنها تبدو أحيانا كأنها لا تحب التـحدث عنها أو كأنها تريد أن تقول لكل الناس .. مـالكم ومـالها .. ولكن فى أحـيـان أخرى كـانت تستسلم للتحدث وأعـرف منها أصل وفصل روزالين .. وكانت فوزية تكرر دائما كلما جاء ذكرها : مسكينة .. مسكينة ..

إن روزالين من قرية مجاورة لمديـنة شيكاغو .. والقرى فى أمريكا هى مدن صـغيرة .. ليست كقرانا فى مـصر .. والعائلة تملك محلا متواضــعا لبيع الأحذية تعتمد عليه اعـتمادا كاملا .. وهى عـائلة كـاثوليكية مـتـزمـتة إلى حـد العـزلة .. فلم تكن روزالين بنتا كبـقية بنات أمريكا تنطلق بكامل حـريتها فى كل نواحى الحيـاة ولكنها كانت بنتـاً مقفولة كـأنها محبـوسة فى سجن .. وأمـها هى السـجانة .. إنه ليـس من حقهـا أن تدخل أو تخرج إلا بأوامر أمها .. ليس من حـقها أن يكون لها صديق كبـقية البنات .. ممنوع لمس الـرجل إلا فى الحلال .. وليس من حقها أن تصادق إلا البنات .. وتعودت على البنات حتى لم تعد

تحب أو يخطر على بالها أن يكون لها صديق شاب .. يكفيها البنات .. وكان كل يوم من أيامها مرسوماً خطوة بخطوة .. إنها تذهب إلى المدرسة فى الصباح .. وتخرج من المدرسة وتذهب إلى دكان الأحذية لتساعد أباها وأمها .. ثم تعود إلى البيت فى السابعة مساء ، وتبقى فيه حتى اليوم التالى وتشغل وقتها بأعمال البيت والمذاكرة ..

هكذا كانت حياة روزالين .. حياة مقفولة وفى منتهى التزمت .. وربما كان الدافع إلى هذا التزمت هو البحث عن الأمن .. عن حماية النفس .. إن كل أهل أمريكا يعيشون فى خوف .. لا أمان فى أمريكا .. إن البنت قد تسير فى الشارع فيعتدى عليها صباحا أو مساء لسرقتها أو لخطفها واغتصابها .. والذين يعتدون ليسوا الزنوج وحدهم أو المكسيكيون أو أى ممن يقال عنهم إنهم معتدون .. إنك تسير فى الشارع ولا تدرى من سيعتدى عليك .. حتى وأنت فى البيت .. لا تدرى ما يمكن أن يحدث لك ولبيتك .. إنهم هناك حريصون على غلق الأبواب والنوافذ دائما ولا يكفى غلق الأبواب والنوافذ ، فهم يتركون النور مضاء طول الليل حتى يقولوا للمعتدى قبل أن يعتدى أن البيت ليس خالياً من سكانه ، وحتى إذا دخل عليهم المعتدى ساعدهم النور المضاء على التصدى له ..

إن الخوف فى أمريكا أصبح كأنه طابع الحياة البشرية خصوصاً خوف البنات .. الجنس الضعيف .. وربما كانت غريزة الخوف هى التى كانت تدفع روزالين إلى أن تتحمل تزمت أمها .. إلى أن حدثت لهم حادثة .. كانت تركب مع أمها وأخيها فى سيارة العائلة .. وكانت أمها هى التى تسوق ..

ووقع تصادم عنيف مع سيارة لورى .. ووقع الثلاثة مصابين .. وقد أصيبت أمها وأخوها بارتجاج فى المخ أدى إلى أن اهتزت قواهما العقلية .. أصبحت أمها مجنونة وأخوها مجنوناً .. أما هى .. روزالين .. فلم تصب إلا بكدمات خفيفة عوفيت منها ولكن الناس اعتقدوا أنها هى أيضا قد جنت .. كان أى تصرف من تصرفاتها يفسره الناس على أنها مجنونة .. يا ناس أنا لست مجنونة .. إنها أمى .. ولكن الناس كانوا ينظرون إليها كما ينظرون إلى أمها المجنونة التى دفعها الجنون إلى التطرف فى التدين والتزمت .. ووصل بها الجنون إلى أن قامت من نومها ذات صباح باكر وخرجت من البيت كما هى وحتى دون أن تضع حذاءها فى قدميها وسارت فى الشارع إلى الكنيسة .. ثم دخلت وأخذت تحطم كل شىء .. الصلبان .. والشمعدانات .. حتى حطمت تمثال السيد المسيح .. ثم سقطت على الأرض تصرخ وتبكى .. وكأنها فعلت كل ذلك وهى نائمة ..

ولم تعد روزالين تحتمل هذه الحياة .. وكان أبوها شفوقاً عليها وكان متأكداً أنها لم يصبها شىء من الجنون الذى أصاب أمها وأخاها .. واستجاب لإلحاحها بأن تلتحق بالجامعة واستطاع أن يدبر لها نفقات دراستها فى المدينة الكبيرة .. وقد أقامت هناك فى حجرة من شقة من شقق عمارة ليست عالية .. ولكنها عمارة قديمة مريحة لها أربعة أجنحة حول حديقة صغيرة يتوسطها حمام سباحة .. وكانت فوزية وزوجها مؤنس يقيمان فى شقة فى نفس العمارة .. والتقت فوزية بروزالين وبسرعة تصادقا .. ربما لأن فوزية تعودت على أن يكون لها دائماً صديقة من البنات وروزالين ليس لها أصدقاء

إلا من البنات .. وربما لأن روزالين وجدت فى فوزية طبيعة تختلف عن طبيعة الصداقة فى أمريكا .. الطبيعة السمحة الكريمة الضاحكة .. وربما جذبهما إحداهما إلى الأخرى اختلاف اللون .. فوزية سمراء غامقة .. ليست سوداء ولكنها شديدة السمار .. وروزالين بيضاء فاقعة البياض .. واختلاف اللون له تأثير فى قوة الجذب .. فمؤنس زوج فوزية هو أيضاً فاقع البياض ..

وتوطدت الصداقة بين فوزية وروزالين حتى أصبحت روزالين تقضى كل أوقات فراغها فى شقة فوزية أو معها فى حمام السباحة .. ثم أصبحت روزالين تحمل كتبها وتذاكر فى شقة فوزية .. إن الاثنتين فى الجامعة وإن كان كل منهما متخصصاً فى دراسة .. ثم تركت روزالين حجرتها وانتقلت كلها إلى شقة فوزية لتعيش فى غرفة خصصت لها وتدفع إيجارها .. لم ترفض فوزية أخذ قيمة الإيجار من روزالين رغم كل صداقتها ورغم أنها ليست فى حاجة إليه .. فهكذا فى أمريكا .. الصراحة فى التعامل ..

وعاشت روزالين مع فوزية وزوجها عامين .. حتى أيام الأجازات الجامعية كانوا دائما معاً .. لم تكن تفترق عنهما إلا أياماً قليلة خلال العام لتذهب لزيارة أهلها فى قريتها .. وخلال العامين لم تفكر أبدا فى اعتناق الإسلام .. وكانت تتحدث أحيانا مع مؤنس أو مع فوزية عن الإسلام .. وكان مؤنس أحياناً يترجم لها بعض آيات القرآن وأحياناً وفى مناسبات متباعدة كان مؤنس يصلى ركعتين لله وروزالين وراءه تراقبه .. ثم كانت فوزية تصوم فى رمضان ولو أنها لم تكن تصوم الشهر كله ، وكانت روزالين تصوم معها حباً لها ..

كأنها لا ترضى أن تأكل بينما صديقتها محرومة من الأكل .. كل ما حدث لروزالين خلال هذه الفترة أنها لم تعد متزمتة كل هذا التزمت .. لم تعد تغالى فى أداء شعائر دينها والتردد على الكنيسة .. ولكن ما لم يتغير فيها هو غريزة الخوف .. إنها دائماً حريصة على أداء ما تتصور أنه يكفل لها الأمان .. ودائماً تعود إلى البيت فى الساعة الخامسة ولا تخرج منه إلا فى صباح اليوم التالى .. إنها تخاف الليل .. تخاف الظلام .. وكانت تبدو فى علاقاتها بفوزية كأنها تحتمى بها .. كأنها لا تهدأ ولا تضمن أمنها إلا وهى بجانبها .. وفوزية كانت أكبر من روزالين بعامين وكانت بحكم طبيعتها هى دائماً المسيطرة .. وقد كانت مسيطرة على روزالين كما هى دائماً مسيطرة على زوجها مؤنس ..

وقد انتهت فوزية ومؤنس من دراستهما بعد كل هذه السنوات وحصل كل منهما على شهادته وكانا يجب أن يعودا إلى مصر .. ولم يبد على روزالين أية ظاهرة جديدة فى الأيام التى سبقت يوم الوداع سوى أنها كانت كأنها واجمة تائهة تفكر فى شىء هى حائرة فيه .. إنها لم تقل أنها تفكر فى أن تلحق بهما فى مصر .. ولم تلح عليهما أن يبقيا معها فى أمريكا كما بقى كثير من المصريين الذين تعلموا هناك ولم يعودوا إلى مصر .. بل إنها لم تكن تتكلم عما يمكن أن تتأثر به عواطفها بعد الفراق .. إنها فقط واجمة دائماً وفوزية تتبعها دائماً بعينين يحيطانها بالحب والشفقة وتحس أن روزالين مسكينة .. مسكينة ..

وتلقت فوزية خطاباً من روزالين بعد وصولها إلى مصر بأيام .. إنه خطاب طويل .. ثم أعقبه خطابات كثيرة .. كل

أسبوع يصلها خطاب من روزالين وكلها خطابات طويلة لا تقل عن ثلاث أو أربع صفحات فولسكاب ، فى حين أن فوزية لم تكن ترد عليها إلا بخطابات قصيرة سريعة ..

وسألت فوزية وهى تحكى لى :

- ماذا كانت تكتب لك ؟!

ونظرت إلى فوزية فى عتاب كأن ليس من حقى أن أسأل هذا السؤال ثم قالت :

- كلام .. إنها عندما تتكلم لا تكف عن الكلام .. وأيضاً عندما تكتب لا تكف عن الكتابة ..

وكان قد مضى أقل من عام عندما أرسلت روزالين برقية مختصرة : هل أستطيع أن آتى إلى مصر وأقيم معكم .. وردت عليها فوزية بكلمة واحدة .. تعال ..

وجاءت روزالين وهى تبدو هائمة فى الفرحة لمجرد أنها استطاعت أن تجىء إلى مصر .. هل جاءت إلى فوزية أم جاءت إلى مصر .. وقد سألت فوزية :

- ما الذى دفعها إلى المجىء إلى مصر .. مجرد سياحة ؟

وقالت فوزية وهى تتنهد مشفقة عليها :

- لا .. إنها ليست غبية حتى تفكر فى السياحة .. ولكنها كانت قد تعودت على الإحساس بالأمان وهى تقيم معنا فى أمريكا .. وبعد أن تركناها هناك عاد الخوف يسيطر عليها ويعذبها .. إنها خائفة خارج البيت وداخل البيت .. خائفة فى كل خطوة وفى كل دقيقة .. إن نشأتها مع أمها ركبت فيها عقدة الخوف .. ودفعتها هذه العقدة لتلحق بنا فى مصر لعلها تعود وتشعر براحة الأمان .. وقد جاءت وهى لا تدرى ماذا سيكون مصيرها فى مصر .. وأنا نفسى لم أكن أعلم ماذا تريد

أن تفعل فى مصر .. هل ستبقى معنا أم هى مجرد زيارة وتعود .. وقد جاءت وهى تحمل حقيبة ملابسها وكلها ملابس عادية ليس فيها ما يبهر .. ثم كانت تحمل حقيبة أخرى كبيرة اكتشفت أنها تجمع فيها عدداً كبيراً من الأحذية .. إن أباها لم يستطع أن يعطيها إلا عددا قليلا من الدولارات لتنفق منها على رحلتها فى مصر ، فاضطرت أن تجمع هذا العدد من الأحذية من الدكان الذى تملكه العائلة واشترت بعضها من شركات الأحذية التى يتعاملون معها بقروض بضمان أبيها .. كانت تعتمد على بيع هذه الأحذية كلما احتاجت إلى ما تعيش به فى مصر .. وقد باعتها كلها فعلا ..

وقلت وأنا أدعى الدهشة كأنى لا أعلم شيئا :

– ولكنها تعمل فى مصر ..

وقالت وهى تتنهد كأنها تتحسر عليها :

– إنها طبيبة متخصصة فى علاج اللثة كما لا شك أنك تعلم .. ولكنى أعتقد أنها قطعت دراستها خصيصاً لتأتى إلينا هرباً من الخوف .. خوف الحياة فى أمريكا .. كانت تستطيع أن تستمر فى دراستها حتى تتخصص فى مجالات أوسع .. ولو أن التخصصات فى الطب الأمريكى أضيق منها عندنا .. فهناك طبيب متخصص فى علاج الأذن وحدها أو الأنف وحده أو الحنجرة وليس طبيبا متخصصاً فى الثلاثة معا الأنف والأذن والحنجرة كما هو تقسيم التخصصات عندنا .. وقد جاءت معها بأدوات طبية حديثة على أمل أن تزاول تخصصها أثناء رحلتها .. ولكنها لم تستطع أن تزاولها فى مصر بصفة كاملة لأن ليس لها حق العمل كطبيبة .. وقد قدمتها إلى كثير من أطباء الأسنان حتى يستعينوا بها إذا أرادوا ، كما أن

كثيرات من صديقاتنا وأصدقائنا عرضوا لثاهم عليها وكانوا يدفعون لها كطبيبة .. ولكنها بعد أيام قلائل كانت قد تمنت الإقامة فى مصر إلى الأبد .. وحتى تضمن تكاليف الحياة استطاعت بذكائها أن تعمل سكرتيرة فى مكتب من مكاتب الشركات الأمريكية ..

وقلت وأنا أبحلق فى فوزية بشك كأن هناك سراً لا تريد أن تكشف عنه :

- وماذا دفعها لأن تقرر الإقامة فى مصر ؟!

وقالت فوزية دون أن تلحظ الشك فى نظرتى :

- نفس السبب .. لقد أحست بالراحة بمجرد وصولها إلى مصر .. إنها تستطيع أن تسير فى الشارع بلا خوف .. وتستطيع أن تسهر الليل خارج البيت بلا خوف .. وتستطيع أن تنام وتفتح كل النوافذ حولها وتطفىء النور بلا خوف .. إنها تتصور أن المصريين كلهم يعيشون فى أمان ، ولذلك فهى تريد أن تعيش معهم ..

قلت وأنا ساهم كأنى أحادث نفسى :

- وقد أسلمت ..

وسمعت فوزية ترد علىّ قائلة :

- لقد ترددت أنا وزوجى مؤنس كثيرا قبل أن نعاونها على إعلان إسلامها .. لقد كنا نظن أن كل ما تعرفه عن الإسلام هو ما عرفته منا عندما كانت تقيم معنا فى أمريكا .. وهذا لا يكفى حتى نطمئن إلى أنها اقتنعت وآمنت فعلا بالإسلام .. ومن يدرى ربما كان كل ما يدفعها للإسلام هو حبها لنا وعيشتها معنا .. بل إن صديقنا مصطفى عندما سمع أنها تريد إعلان إسلامها قال إنها ربما كانت من أفراد المخابرات الأمريكية الذين

يدعـــون كل شيء حـتى يـصلوا إلى مـــا يحـقق أهدافـــهم .. ولو كانت فى الهند لحاولت اعتناق الدين البوذى أو الهندوكى .. ولكنى أثق فى روزالين .. لا يمكن أن تكون امرأة مخابرات .. ثم إننا اكتشـفنا أن ليس كل ما تعرفه عن الإسلام عرفـته منا .. لقد كانت تقـرأ كثيـراً عن الإسلام وخصـوصاً بعـد أن غادرنا نحن أمريكا وحفظت الكثير من آيات القرآن وتستطيع أن تتلو بعضها بالعـربية .. واقـتنعنا أنا وزوجى أن دوافعـها إلى الإسـلام هى دوافع التـحرر من عـقـدتها .. عـقـدة الخوف .. إنهـا تؤمن بأن الإسلام هو دين الأمان وأنه يحدد للمؤمن تفاصيل الحياة بحيث يضمن لنفسه الأمان .. ومع إلحاحها بدأ مؤنس يجمع المعلومات عن إجـراءات إعلان الإسـلام .. وعـرفـها بأحـد المشـايخ .. ثم صحبناها إلى المكتب المختص فى الأزهر لإشهار إسلامها ..

وضحكت فوزية قائلة :

– لقد ذهبت معنا إلى الأزهر وهى ترتدى ثوباً عادياً قصيراً يكشف عن ساقيها حتى ركـبتيها .. ولم أتنبه لا أنا ولا زوجى إلى أن فى هذا ما ينافى التقاليـد .. تقاليد المحافظة على مظاهر التدين .. أنا نفسى كنت أرتدى مـثل هذا الثوب العادى .. ولكن الشيخ الذى كان يسـجل إسلامها نهرها وقـال لها إن الإسلام لا يبيح الكشف عمـا يثير وثوبها يكشف عما يثـير منها .. عن عورة .. فـوعدت مستـجدية بأن تحرص على التقـاليد .. ومن يومها وهى تلبـس هذه الثياب التى تراها بها وتغطيـها كلها .. وأصبح اسمها أمينة .. أنا التى اخترت لها هذا الاسم لأنه اسم المرحومـة أمى وإن كنت لم أتعـود أن أناديها به حتـى اليوم .. وأمينة متـزمتة مغالية فى مظاهر إسـلامها كما كانت مـتزمتة مغالية وهى كاثوليكية مسيحية ..

قلت ضاحكاً ساخراً :

– لا يمكن أن تكون متزمتة .. لقد رأيتها تركب موتسكل ..

وقالت فوزية فى حدة كأنها تنهرنى :

– إنها لا تعتقد أن ركوب الموتسكل يتعارض مع تعاليم الإسلام ما دامت حريصة على أن يغطيها ثوبها وهى راكبة .. وقد كان النساء العرب منذ فجر الإسلام يركبن الخيل .. ثم إنها متأثرة بأن الراهبات الخالصات للدين يركبن الموتسكل أيضاً والبسكليت ويقدن السيارات .. ولكنى خفت عليها من إثارة الناس عندما يرونها فى الشارع وهى راكبة موتسكل .. ولم تقتنع بكلامى .. إنها مطمئنة اطمئناناً عجيباً على أمننا فى مصر .. وكانت تركب الموتسكل فى قريتها فى أمريكا ولكنها لم تكن تستطيع أن تركبه فى المدينة الكبيرة .. كانت تخاف أن تثير أحداً من الناس فيضع خطة ليستولى عليها .. أو ليستولى على الموتسكل نفسه فقد يكون بالنسبة له أغلى من المرأة ..

وقلت وأنا أحاول مراضاتها ونفاقها :

– على كل حال فالفضل لك .. أنت التى نزعت عقدة روزالين .. عقدة الخوف .. منذ أن دعوتها للحياة معك فى أمريكا .. ثم دعوتها إلى مصر .. وعاشت معك فى بيتك .. وكفلت لها كل ما تتطلبه الحياة ..

ولم تقل لى فوزية أن روزالين تدفع لها تكاليف حياتها معها .. تدفع إيجاراً للحجرة التى تقيم فيها ، وتدفع نصيبها من كل نفقات الحياة .. وفوزية ليست فى حاجة لأن تدفع لها روزالين .. ولكن هذه هى الحياة الصحيحة .. كل يتحمل نفقات نفسه .. هكذا الحياة فى أمريكا .. ولكن فوزية ردت قائلة :

– إنى أحب أمينة وأثق فيها وأستريح لها ..

ولم أحاول أن أسألها عن مدى هذا الحب ولا عن نوعه حتى أرضى لهفتى .. وحتى لا أكشف عن شكوكى فى تصور ما بينها وبين روزالين ، ولكن بعد تبادل كلمات عائمة عدت أسألها :

- هل تعتقدين أن أمينة ستكون سعيدة مع عبد الوهاب البرعى ..

وقلت اسم أمينة كأن الذى سيتزوجها عبد الوهاب هى أمينة وليست روزالين ..

ورأيت فوزية تلوى شفتيها فى قرف ثم تعتدل فى جلستها فى عصبية وتقول :

- لا أدرى .. على كل حال لم يكن عبد الوهاب هو أول من تقدم لها ..

وقلت فى دهشة :

- هل تقدم لزواجها كثيرون ..

وقالت وهى لا تزال تعبر عن قرفها :

- البعض .. وكانت ترفضهم ..

وقلت من خلال دهشتى :

- لماذا يتقدمون لها .. ولماذا ترفضهم .. اسمحى لى أن أقول لك إنها ليست رائعة الجمال ..

وقالت وهى تضحك ضحكة مرة ساخرة :

- ربما لأنها أمريكية .. والجنسية الأمريكية لها إغراء .. إن من يتزوج أمريكية يصبح من حقه أن يحصل على الجنسية الأمريكية.

قلت :

- ولماذا قبلت أن تتزوج عبد الوهاب ..

قالت وشفتاها مقلوبتان :

- ربما لأنها اقتنعت بأنه مسلم متدين مما يتوافق مع إسلامها وتدينها ..

قلت كأنى أحقق معها :

– وهل وافقت أنت على هذا الزواج ..

وقالت وهى تقفز واقفة من جلستها :

– ليس من حقى أن أوافق أو أرفض .. إنها حرة ..

ثم كانت المرة الثالثة التى أزور فيها فوزية فى الصباح لأختلى بها وأجرها إلى إشباع لهفتى على كشف الأسرار .. ولم أكن قد التقيت فى المرتين السابقتين بروزالين .. كانت دائماً خارج البيت .. وفى هذه المرة وقبل أن تنتهى الزيارة فتح الباب الخارجى بمفتاح ودخلت روزالين عائدة من الخارج .. وابتسمت لى ابتسامة ضيقة من خلال شفتيها الرفيعتين قائلة بالإنجليزية :

– هاللو ..

قلت وأنا أمد يدى مصافحاً :

– كنا نتحدث عنك ..

وقالت وهى تشد يدها من يدى بسرعة كأنها لا تطيقنى :

– ليس فىّ ما يستدعى الكلام .. لست أول أمريكية تقيم فى مصر .. ولست أول أمريكية تعلن إسلامها .. عن إذنك ..

وتركتنى وجرت داخل البيت وفوجئت بفوزية تشدنى إلى باب الخروج وهى تقول بالإنجليزية أيضاً فى ابتسامة منفعلة :

– سأراك مرة أخرى يا حسين .. مع السلامة ..

وأغلقت الباب ورائى دون أن تودعنى بنظراتها كأنها فى عجلة لتلحق بروزالين ..

● ● ●

كانت قد مضت خمسة أيام لم أر فيها عبد الوهاب البرعى ، ورأيته بعد أن تعمدت البحث عنه وقلت له ونحن جالسان فى محل حلوانى بالزمالك :

– ما آخر أخبار أمينة ؟
قال بلا اهتمام :
– لا جديد ..
قلت مبتسماً :
– كيف لا جديد .. إن كل كلمة بينكما تقدم لك ولها جديد ..
قال فى صوت عادى :
– إننا نتحدث فى التليفون .. ولا طاقة لى على التليفون ..
قلت فى دهشة :
– ألم تلتق بها ..
قال بلا حماس :
– لماذا .. إننا سنلتقى يوم الزواج ..
وصحت وأنا مغتاظ منه :
– لا يمكن يا رجل .. يجب أن تلتقيا كل يوم حتى تعرفها أكثر وتعرفك أكثر وتتفقا على ما تريده منها وما تريده منك ..
وقال بلا اهتمام :
– لم يطرأ على بالى هذا الكلام .. إننى فى انتظار يوم الزواج .. وأحدثها فى التليفون كل يوم لأطمئن عليها ..
ربما كان عبد الوهاب يعيش أيام جده وجد جده عندما كان كل ما بين العروس والعريس لا يبدأ إلا بعد عقد القران .. بعد استكمال كل الأصول الشرعية .. إنه لا يسعى إلى لقاء خطيبته .. وطبعاً لم يقبلها قبلة واحدة .. ولا حتى تحسس يدها .. وصرخت فيه :
– اسمع يا عبده .. يجب أن تقابلها .. لتذهب إليها الليلة وأنا مستعد أن أكون معك .. فإن هناك تفاصيل كثيرة لم تتفقا عليها بعد ..

وقال فى هدوء :

– لا مانع .. سأتصل بالتليفون .. وألتقى بك الساعة السابعة كما تعودنا فى النادى ونذهب معاً كما سبق أن فعلنا .

وهدأت حدتى وقلت لعبد الوهاب بعد أن التقطت أنفاسى :

– إنك لم تقل لى يا عبده كيف عرفت أمينة ..

وقال هادئاً :

– لقد قلت لك إنى كنت أقول لإخوتى البنات وهن يلححن على أن أتزوج بأنى أريد الزواج من فتاة لها شخصية الفتاة الأوربية القوية الكاملة على أن تكون مسلمة متدينة .. لم أكن أريد زواج أوربية ، ولكن فتاة فى قوة شخصية الفتاة الأوربية .. إلى أن جاءت أختى نظيرة وهى طالبة فى الجامعة الأمريكية كما تعرف وقالت لى أنها التقت بأمينة وأنها فتاة أمريكية ومسلمة وأنها ترشحها زوجة لى .. وفكرت .. وانتهى تفكيرى بأنه ما دامت أمينة مسلمة فلا يهم إذا كانت أمريكية أجنبية .. وهكذا تقدمت لخطبتها وزواجها ..

وقفز تفكيرى كله وانحصر فى نظيرة .. إنى منذ رأيتها لم تغب عن فكرى .. سمارها .. وقوامها .. وجرأتها .. ولمعة عينيها .. وشخصيتها الأقرب إلى شخصية بنات البلد المثيرة .. وكنت أتمنى أن أراها .. بل ربما لم أكن أبحث عن عبد الوهاب إلا لألتقى بأخته ..

وقلت له فى حماس :

– يجب أن تأتى نظيرة معنا فى زيارة أمينة .. ما دامت هى السبب ..

وقال بلا مبالاة :

– سأقول لها ..

ومضت الساعات وأنا فى انتظار لقاء نظيرة ..

٤

ذهبت إلى النادى قبل موعدى مع عبد الوهاب بمدة وجلست فى انتظاره .. ربما لم تكن أحـاسيسى فى انتظار عـبد الوهاب ولكنها كانت فى انتظار أخته نظيـرة بعد أن اتفقت معه على أن يصحبـها معه .. أن نظيرة بدأت تشغل بالى بشكـل مثير دون أن أدرى سبـباً لذلك .. بل إنى كنت أبتـسم ساخـراً من نفسى كلمـا تذكرتهـا .. ماذا أريد منهـا .. قطعاً لا أريد منهـا شيـئاً ، أو أنى حتى هذه الأيام لم أكن قد قررت أنى أريد منها شيئاً .. إن شـخصـيـتهـا هى التى جـذبتنى وهى التى تشـغل بالى .. شـخصـية بنت الـبلد التى استطاعـت بجرأتهـا أن تتطور وأن تلتحق بالجـامعة الأمـريكية دون أن تفرط فى شـخصيتـها .. شخصية بنت البلد .. بكل ما فى بنت البلد من إثارة ..

وفوجئتُ إلى حد الانبهـار عندما رأيت نظيرة تدخل وحدها إلى سـاحـة الليـدو فى النادى حـيث كنت فى انتظار أخـيـهـا عـبد الوهاب .. إنهـا هى الأخـرى جاءت قـبل موعـدنا .. وهى

تسير بخفة مرتدية ثوباً ليس فيه شيء من تزمت أخيها وتعاليم مظاهر الإسلام .. فهو ثوب يكشف عن ذراعيها ويرتفع إلى ركبتيها وإن كان ثوباً يعتبر محتشماً ولا يكشف عن صدرها ولا يضيق أكثر من اللازم حول خصرها .. وضفيرتها الطويلة السوداء تلتف حول عنقها وتنام فوق كتفها كأنها خيط الليل المثير .. وأخذت تصافح وتهلل مع كثير من بنات وشبان النادى الذين تزدحم بهم ساحة الليدو .. رغم أنى أعرف أنها ليست عضواً فى النادى ولم أرها تتردد عليه كثيراً .. إلى أن لمحتنى من بعيد فابتسمت ابتسامة واسعة وجاءت إلىّ وقالت فى مرح :

– أهلا حسين .. كيف حالك ؟

صافحتنى وقالت اسمى فى بساطة كأننا أصدقاء قدامى رغم أننا لم نلتق إلا مرة واحدة وفى صحبة أخيها .. وقلت وأنا أقف مرحباً وأحاول أن أضع فى صوتى رنة تعبر عن اهتمامى بها :

– كيف حالك أنت .. أوحشتنى ..

قالت من خلال ابتسامتها الواسعة :

– حالى رائع .. وقد جئت قبل الموعد .. هذه فرصة لأجالس صديقاتى وأصدقائى .. اسمح لى ..

قلت وأنا لا أزال ممسكاً بيدها التى صافحتنى بها :

– لقد التقينا بلا موعد .. فابقى معى إلى أن يحين الموعد ..

ونظرت إلىّ نظرة واسعة كأنها دهشت من شيء جديد اكتشفته ثم قالت فى لهجة مرحة كأنها قررت أن تقبل على تجربة جديدة :

– لا مانع ..

وشدت مقعداً وجلست بجانبى وهى تستطرد قائلة :

- إن كل صديقاتى وأصدقائى وكل طلبة الجامعة الأمريكية تقريباً يجتمعون فى هذا النادى .. ورغم ذلك فلا يخطر على بالى أبدا أن آتى إلى هنا .. ولا آتى إلا بالصدفة ..

وقلت وأنا أبتسم كأنى أحاول أن أغريها بابتسامتى :

- اليوم ليس صدفة .. فأنا الذى أقنعت أخاك عبد الوهاب لنلتقى معاً ..

قالت فى بساطة صريحة :

- لماذا كنت تريدنا أن نلتقى ..

قلت وأنا أحاول أن أكون مثلها بسيطاً مريحاً :

- لسببين .. سبب أعرفه وسبب لم أعرفه بعد أو على الأقل لا أستطيع حتى الآن أن أعبر عنه ..

وقالت ضاحكة وهى تنظر إلىّ كأنها فهمتنى :

- دعنا من السبب الذى لا تعرفه وإلى أن تستطيع أن تعبر عنه . إنى أعذرك .. إن الإنسان فى حاجة إلى وقت حتى يعرف ما يريد ويكون صادقاً فيما يعرفه .. حدثنى عن السبب الآخر الذى تعرفه ..

إنها ذكية هذه الفتاة .. كأنها قدرت ما أعنيه .. أو كأنها تعودت أن يبدأ معها كل شاب أسطوانة الغزل .. وقد تماسكت بسرعة وتقمصت شخصية أكثر جدية حتى لا تعتبرنى أحد الشبان الذين يغازلونها .. وقلت فى صوت جاد :

- لقد كنت أريد أن أعرف رأيك فى روزالين ..

وقالت فى بساطتها الحلوة :

- ليس لى رأى فيها ..

وقلت فى دهشة :

– كيف لا يكون لك رأى فيها .. إنها ستكون زوجة أخيك ..

وقالت ضاحكة :

– يكفى رأى أخى فيها .. إنه هو الذى سيتزوجها ..

وقلت كأنى ألومها :

– إنك على الأقل يجب أن تطمئنى على أخيك بعد زواجه منها .. إن أخاك صديقى ولهذا فإنى أحاول أن أعرف روزالين حتى أطمئن عليه ..

وقالت من خلال ابتسامة ساخرة :

– هذا تدخل فيما لا يعنيك .. إنى أنا وأنت نعلم أن ليس هناك جريمة ولا خطيئة أدت إلى أن يطلب عبد الوهاب الزواج من روزالين .. أما من هى روزالين ومن هو عبد الوهاب فهذا ليس من اختصاصنا .. يكفى رأى كل منهما فى الآخر .. لذلك لم أحاول أن أدوش دماغى لأحدد رأيى فى روزالين ..

قلت وكأنى أقاوم عنادها :

– ولكنها صديقتك .. ولا شك أنك تعرفين عنها أكثر مما يعرفه أخوك عبده ..

قالت ضاحكة :

– إنها ليست صديقتى ولم تكن أبدا صديقة .. كل ما هنالك أنى سمعت يوماً من إحدى زميلاتى فى الجامعة أن هناك فتاة أمريكية جاءت إلى مصر وحيدة وأعلنت إسلامها فدفعنى حب الاستطلاع والفرجة على الغرائب لأن أطلب من زميلتى أن تعرفنى بها .. وصحبتنى زميلتى إليها فى الشركة التى تعمل بها .. وقلت لها إنى أقوم بدراسة عن التأثيرات الاجتماعية

وإنى أريد أن أجلس معها حتى تساعدنى فى ناحية من نواحى هذه الدراسة فحددت لى موعد لقـاء فى البيت الذى تقيم فيه .. بيت فـوزية الباجـورى .. وذهبت فى الموعد بلا حـماس فـهى لم تشدنى بشخصيتها فـهى كما تعلم ليست جميلة وهى تبقى مدة طـويلة صامـتة فـإذا تكلمت فلا تكف عن الكلام وتـخرج بكلامـها عـما يـهمك .. ورغم ذلك فـقد تمتـعت عندمـا جلست معـها .. تمتعت بغـرابة شخصـيتهـا .. وقالت لى بعض الكلام الذى أثار اقـتنـاعى واحـتـرامى .. قـالت لى مـثـلا إن الدين لا يورث .. وأن الفرد لا يـجب أن يعشق ديناً لمجـرد أنه وجد نفســه فيه .. وجد نفـسه مسلماً أو مـسيحيـاً أو يهودياً .. بل يجب أن يتـحرر أولا .. أن يـولد بلا دين .. ثم يبـحث بنفسـه ولنفـســه إلى أن يـجـد الدين الذى يمـلأ إيمـانه ويـقنع عـقله ويسـيطر على أحاسـيســه فيلـجأ إليـه ويعيش فـيه .. يعـيش الإسـلام أو المسـيحـية أو اليـهودية .. وهى قـد ولدت ووجدت نفسـها مـسيحـية كـاثوليكية .. ولكنهـا استطاعت أن تتـحرر وتبحث لنفسها بنفسـها إلى أن آمنت بالإسـلام فاعتنقته .. وهى تعيش اليوم هادئة سعيـدة مطمئنة بإيمانها .. تعيش الإسلام .. أصبح إسلامها هو وجودها .. وقد أثر فىّ هذا الكلام واقتنعت به .. وإن كنت لم أستطع أن أطبقـه على نفسى .. لم أستطع أن أتحـرر من الإسـلام حتـى أبدأ فى البـحث عن الدين بنفـسى ولنفسى ، ولـو عدت إلى الإسلام أعـيش فيه بعـقلية اخـتارته لا بعقليـة توارثته .. ولكن يبـدو أن الإسلام مسـيطر علىّ إلى حد أنى لا أسـتطيع أن أتحـرر بعيدا عنـه لبضع دقـائق .. وقد كانت طوال حديثـها معى تنظر إلى فوزية كأنها تسـألها رأيها

فيما تقول .. وفوزية تجلس بيننا تسمع دون أن تنظر إلىّ أو إليها .. وقد أثارت فى فوزية لغزاً آخر أريد أن أعرفه .. وبدأ الشك يعترينى .. ربما لم تعتنق روزالين الإسلام إيماناً أو اقتناعاً إنما فقط بتأثير صديقتها فوزية .. لذلك طلبت أن أقابلها مرة أخرى .. وقابلتها ..

وكانت نظيرة تتكلم بلهجة لا تتفق مع مظهرها .. مظهر بنت البلد .. إنها تتكلم بلهجة دراسية عميقة تتغلب فيها شخصية الطالبة فى الجامعة المتفوقة فى دراستها .. وقد أعجبت بها فعلاً إعجاباً له لون جديد .. وقاطعتها وأنا أسألها من خلال إعجابى :

– المهم كيف التقى بها أخوك عبد الوهاب ..؟

وضحكت نظيرة قائلة :

– كانت نكتة أو لعبة لعبتها كما تعودت .. فعبده هو أقرب إخوتى إلىّ .. بل إنه لا يعتبر أن له أختاً أو أخاً إلا أنا .. وأنا الوحيدة التى يتحدث معها طويلا عن دخيلة نفسه .. وكانت من أهم أمانيه بعد أن عاد إلى أوروبا أن يتزوج فتاة مسلمة ولكنها تتميز بشخصية أوربية .. فهو يؤمن بأن الشخصية الأوربية للفتاة شخصية قوية تحمل مسئولية نفسها .. وبعد أن عرفت روزالين تساءلت ساخرة .. لماذا لا تكون هى الفتاة التى يريدها أخى .. إنها شخصية أوربية أو أمريكية ومسلمة .. إنه لا يريد أكثر من ذلك .. كنت أفكر كأنى أفكر فى نكتة أطلقها أو لعبة ألعبها .. وعرضت الفكرة على أخى فإذا به يقبلها فوراً .. إنه فى حالة نفسية تجعله يتعلق بأى حبل يمد إليه أو أى قطعة خشب تنقذه من الغرق .. وعندما قابلت روزالين للمرة الثانية

قلت لها إن أخى يتمنى أن يلقاها ، وحدثتها عنه طويلا وقلت لها إنه مؤمن دارس متفرغ للدين الإسلامى .. وكنت أكلمها جادة كأنى أتقدم لخطبتها فعلا ولكنى بينى وبين نفسى كنت أضحك ساخرة .. كنت ألعب .. ونظرت روزالين إلى فوزية كأنها تسألها .. ثم وافقت على أن تنتظر زيارة أخى .. وقد ذهبت معه فى الزيارة الأولى .. وجلس عبد الوهاب وروزالين أحدهما بجانب الآخر يتكلمان حديثاً جاداً ، وكان الحديث قد شد أحدهما إلى الآخر .. وخرجنا على أن يلتقيا غدا .. ولم أذهب معه بعدها .. بل إنى كدت أنسى الموضوع كله كأن النكتة قد انتهت .. إلى أن فوجئت بعد أسبوعين بأخى يخبرنى أنه اتفق مع روزالين على الزواج .. لقد كان يقابلها ولم يكن يقول لى .. ولم أهتم .. لعل أخى يتسلى حتى لو وصلت التسلية إلى حد الزواج ..

وقلت مندهشاً :

– هل أحبها وأحبته فى أسبوعين فقط ؟

وقالت ضاحكة :

– لا أدرى ..

قلت من خلال دهشتى :

– ولكنى سمعت أن روزالين تقدم إليها كثير من المصريين وكانت ترفض الزواج بكل من يتقدم لها .. فلماذا قبلت الزواج من عبد الوهاب ..

وقالت نظيرة من خلال ابتسامة ساخرة :

– هل تريد رأيى .. إنى أعتقد أن ما جمع بينهما هو أنهما الاثنين من الشواذ .. لا أقصد الشذوذ الجنسى طبعاً ولكنه

شذوذ فى الشخصية .. فأخى عبد الوهاب ليس فى شخصية طبيعية ولا هى فى شخصية طبيعية .. فاتفقا على أن يعيشا معاً كأن كلا منهما قرر أن يبحث عن شخصيته فى الآخر .. يبحث عن الغيب ..

وأحسست بالحيرة فى كلام نظيرة .. إنى أعلم أن عبد الوهاب ليس فى شخصية طبيعية فعلا .. إن حياته كلها شاذة .. وروزالين أيضاً لا تبدو كفتاة طبيعية .. ولكن هل يكفى هذا الشذوذ للزواج .. وقلت من خلال حيرتى :

- إنه على كل حال زواج كله شاذ .. إن عبد الوهاب حتى الآن لم يحدثنى عن أى شىء اتخذه استعداداً للزواج .. أين سيقيم مع زوجته .. إنى أعلم أنه لم يؤجر شقة .. هل سيقيمان فى بنسيون أم سيعيش مع زوجته عند فوزية ..

وقالت نظيرة فى بساطة :

- إنه سيقيم هو وزوجته معنا ..

وصحت :

- فى نفس شقة العائلة ؟

وقالت نظيرة بلا اهتمام :

- إنها شقة كبيرة تشمل الدور العلوى كله من العمارة وعندنا ست غرف نوم ستخصص غرفتان منهما لعبد الوهاب وزوجته .. وقد وعده أبى بأن يخصص له شقة فى العمارة إذا خلت شقة .. وإن كان باباً لا يتمنى أن تخلو شقة ..

وقلت فى لهفة :

- هل علم أبوك بهذا الزواج ؟ وما رأيه ؟

وقالت نظيرة فى برود :

- لا رأى له ..

وصحت كأنى أكاد أجن :

- كيف لا يكون له رأى وابنه سيتزوج فتاة أمريكية وسيأتى بها لتعيش معه ..

وقالت نظيرة من خلال ابتسامة ضيقة :

- إن أبى مثلى أو إنى أنا مثله فهو لا يتعب نفسه فى تحديد رأى إلا فيما يحتاج إلى رأيه .. وزواج عبد الوهاب لا يحتاج إلى رأيه .. إن ابنه يتزوج امرأة اختارها لنفسه ولن يكلفه الزواج أو الإقامة معنا أكثر مما قدر .. فليترك ابنه يفعل ما يشاء .. ما دام ليس فيما يفعله أى إيذاء أو خسارة ..

وقلت وأنا أكبت حيرتى وغيظى من هذا الأب :

- إنى لا أريد أن أتحدث عن أبيك .. هذا موضوع آخر ..

وقالت ضاحكة :

- أحسن .. لا تتحدث عنه ولا تجعل منه موضوعاً .. لقد جاء أخى .. هيا بنا ..

وقامت منطورة فى مرح وكان عبد الوهاب قد جاء وهو يسير بين الجالسين فى حذر عكس ما جاءت هى ، وتنقلت مهللة بين الجالسين .. وأخذت أخاها من يده قبل أن يقرأ السلام وهى تردد :

- هيا بنا ..

وركبنا السيارة .. عبد الوهاب بجانبى ونظيرة فى المقعد الخلفى كما تقضى تقاليد عبد الوهاب ، وأنا تائه حائر فى كل ما سمعته من نظيرة ثم قلت كأنى أحاول أن أهرب من حيرتى :

- اسمع يا عبد الوهاب .. لا يمكن أن تبقى خمسة أيام دون أن ترى خطيبتك .. يجب أن تراها كل يوم إن لم تكن كل ساعة.

وقال وهو يضحك :

- كلها كام يوم وأعيش معها ..

وقلت وكأنى أشخط فيه :

- لقد قلت لك أنك يجب أن تعرفها كلها قبل الزواج إنى متأكد أنك حتى لم تتبادل معها قبلة واحدة ..

وقال عبد الوهاب مبتسماً فى خشوع :

- إن ما تصل إليه فى الحرام ستصل إليه لو انتظرت فى الحلال ..

وصحت :

- إنها خطيبتك وقد أصبحت كلها حلالاً لك رغم أنى لا أوصيك إلا بقبلة ..

وقال فى هدوء :

- الحلال يعلنه الشرع ..

والتفت إلى نظيرة قائلاً :

- ما رأيك فى أخيك .. هل يعجبك هذا الحال ..

قالت ضاحكة :

- دع كل واحد يعش كما يريد ..

وقلت كأنى أتعمد سؤالها :

- لو كنت أنت مخطوبة هل تحرمين خطيبك من مجرد قبلة بحجة الحلال والحرام .. إن القبلة فى حالة الخطوبة تعتبر تعارفاً فى الحلال ..

وقالت نظيرة ضاحكة :

- انتظر إلى أن أخطب وبعدها سأقول لك ما يحدث بينى وبين خطيبى .. ومن يدرى ..

وكنا قد وصلنا إلى بيت روزالين ..

واستقبلتنا بفرحة هادئة .. وفوزية كما هى العادة لا يبدو عليها شىء .. لا هى فرحة ولا هى ليست فرحة .. ودار حديث عادى ..

وكان زوجها مؤنس جالساً بجانب عربة المشروبات التى كانت معدة وقال قبل أن يبدأ الحديث :

- لنبدأ ..

كأنه كان يهمه أن يطفىء عطشه هو لا عطشنا .. والعربة كما هى العادة تحمل الحلال والحرام .. عصير الليمون وزجاجات الكمبارى والجين والويسكى ..

وتعمدت أن أشرب شفطة من عصير الليمون ثم قمت قائلا :

- آسف يجب أن أعود .. عندى موعد ..

ولم يتمسك بى أحد ولا عبد الوهاب ولكنى فوجئت بنظيرة تقوم وهى تقف بجانبى :

- خذنى معك .. يجب أن أعود إلى البيت ..

ونظر أخوها عبد الوهاب إليها فى دهشة ثم نظر لى فى لوم كأنه لا يوافق على أن تخرج أخته معى وحدها ولكنه لم يعلق بشىء ..

وقلت لنظيرة وهى بجانبى فى سيارتى :

- هل يمكن أن نعود ونجلس فى النادى لنتم حديثنا ..

وقالت من خلال ابتسامة تقطر بالخبث كأنها تفهمنى :

- لا .. لا أستطيع .. يجب أن أعود إلى البيت ..

وقلت كأنى أصارحها بالرجاء :

- هل لا أستطيع أن أتصل بك إلا عن طريق أخيك عبده ..

قالت ضاحكة :

- هل أنت قوى أم ضعيف ..؟

وقلت فى دهشة :

- ماذا تقصدين ؟

قالت من خلال ضحكتها :

- لو كنت قوياً فانتظر إلى أن أتصل بك وأعطنى رقم تليفونك ، أما إذا كنت ضعيفاً فسأعطيك رقم تليفون البيت وحاول أن تتصل بى ..

وسكت ..

وعادت تسألنى :

- لماذا سكت ؟

وقلت وأنا لا أنظر إليها :

- إنى أفكر فى مدى قوتى وضعفى بالنسبة لك .. ولكنى أعتقد أنى ما زلت فى منتهى القوة ..

وأوقفت السيارة أمام العمارة .. عمارة أبيها .. وأخرجت ورقة وقلماً وكتبت رقم تليفون بيتى الذى أقيم فيه مع أبى وأمى وإخوتى .. ورقم تليفونى فى الشركة الهندسية التى أعمل بها .. ورغم تليفون الشقة التى أحتفظ بها والتى أسميها مكتبى الخاص .. وأعطيتها الورقة وأنا أقول متعمداً اللامبالاة:

- حاولى أن تبحثى عنى ولن أبحث عنك مهما أردتك ..

وخطفت الورقة من يدى وقفزت من السيارة دون أن ترد علىّ ..

٥

كنت بينى وبين نفسى أكاد أطق بالغيظ من نظيـرة .. خيل إلىَّ أنهـا استـطاعت أن تسخـر منى وتخـدعنى .. نظيـرة ابنة الحاج عبد الـغفور البرعى تاجر وكالة البلح .. خـدعتنى عندما قالت لى كأنها فيلسوفة زمانها أن الرجل القوى هو الذى يترك البنت تجـرى وراءه والرجل الضـعـيف هو الذى يجـرى وراء البنت ، ودفعـتنى إلى أن أدعى بأنى رجل قوى فأعطيتـها رقم تليفونى لتـتصل بى ولم أحصل منها على وسـيلة أستطيع بها أن أصل إليها .. وقد كنت غبياً .. إنى بـذلك أصبحت مستسلماً لهـا وأعطيـتهـا الحق فى أن تتـحكم فىّ .. إمـا أن يوحى لهـا مـزاجهـا بالاتصـال بى أو لا تتصل .. إمـا أن تمن علىّ بكلمـة وابتسامة وإما ألا تمن بشىء وتتشـوطنى بعيداً عنها .. وليست هذه هى ميزة الرجل القوى .. إنها صفة الرجل الضعيف المنهار خـدام البنات .. أن الرجل الـقوى هـو الذى يحـدد مـا يريد ثم يفرض إرادته ليصل إلى ما يريد .. وأنا أصـبحت أعترف بأنى

أريد نظيـرة .. لم أحدد بعـد ما أريده منهـا .. ولكنى أريدها .. وصـحيح أنهـا لم تكن تخطر على بالى أبدا وأنا أراها منذ كانت صـغيرة بين بنات الزمالك .. ولكن بعد أن جمعتنا مشكلة أخيها فى الأيام الأخيرة أحسست كأنها تتسلل إلى داخل عروقى إلى أن أصبحت تسيطر على كل بالى .. ربما لأنهـا كبرت ونضجت وأصبح جمـالها الذى ينعكس علىّ كأنه جمـال بنت بلد يثيرنى ويثير أمنيـاتى .. ربما كان مجرد إعجـاب أو لعله شىء أكثر .. ربما كانت شـخصيـتها الجـريئة الصـريحة قد رسـمت أمامى صـورة المرأة التى أحلم بهـا .. لا أدرى إلى الآن ما هى ومـاذا أريد منها ..

وكانت قد مرت خمـسة أيام ولم تتصل بى نظيرة .. وكنت طوال هذه الأيام فى حـالة انتظار .. كنت أذهب إلى عـملى فى الصبـاح وتتعلق عيناى بالتليفون القريب .. لعلها تتكلم .. وأعود إلى البيت وأبقى فـيه على غيـر عادتى وأنا بجانب التليـفون .. وقضيـت ليلتين فى شقتى الخـاصة التى أسميـها مكتب ، وأنا فى انتظار التليـفون .. وأنا لم أتعـود أن أذهب إلى هذه الشـقة - أقصـد المكتب - إلا وأنا على مـوعد .. ولكنى أصبـحت أذهب وحـدى فقط لانتـظار التليفـون لعله يرن .. إنـى أتفاءل بهـذه الشقة وأستبشـر الخيـر دائماً من هذا التليفون ، فقد تعودت أن أقـضى أجمـل وأمتع أيام شـبـابى هناك .. لعلهـا لا تحس بما يدفعها للتحدث إلىّ .. لا تحبنى .. ولم تجد فىّ ما يغريها بى .. أن الرجل القوى الذى تخـيلته ليس قوياً بالنسبـة لها .. ولكنى يجب أن أكون قوياً .. يجب أن أصمم على عـدم السعى إليها .. إنى أستـطيع أن أتصل بأخيـها عبـد الوهاب لأصل به إليـها ..

ولكنى لن أتصل .. لا أريدها .. فى ستين داهية .. إنها مجرد واحدة من عشرات البنات اللاتى أعجبت بهن دون أن يدفعنى الإعجاب إلى السعى وراءهن ولا حتى مجرد أن أتمناهن ..

وكانت الساعة الرابعة بعد الظهر وكنت قد قررت أن أخرج من البيت وأبدأ حياة الحرية .. ولكن التليفون رن .. وتركت أمى ترد .. إنها نظيرة تسأل عنى وكانت صريحة وأمى تسألها عمن تكون .. وقالت كل اسمها .. نظيرة عبد الغفور .. وأمى تقول لها .. ازيك يا بنتى .. وأمى لم تكن تعرفها ولكنها تعرف اسم عبد الغفور .. المليونير البخيل الذى تعرفه كل مصر .. وأمى تعرف أيضاً أنى صديق ابنه عبد الوهاب .. ولا شك أن أمى كانت سعيدة وهى تسمع اسمها .. سعيدة لأن ابنها يعرف أولاد وبنات المليونير .. وأعطتنى السماعة وما كادت نظيرة تسمع صوتى حتى صاحت :

- هل سمعت آخر الأخبار ..

وتعمدت أن أضغط على أعصابى وأكون هادئاً حتى لا أكشف عن أنى كنت فى انتظارها .. وقلت فى صوت كتمته أعصابى فخرج غليظاً :

- خيراً ..

قالت كأنها فرحة :

- لقد زارتنا روزالين فى البيت ..

قلت ساخراً :

- جاءت لتطمئن إلى الحجرات التى ستقيم فيها ..

قالت بصوتها المرح الذى ترن فيه لهجة بلدية :

- لقد دعتنا كلنا .. وتحدد الزواج يوم الخميس القادم ..

وقلت وأنا أتعمد أن أبدو لا مباليا .. أتعمد أن أكون واد تقيل :

- إذن سأراك يوم الخميس ..

وصاحت فى بساطة :

- لا .. أريد أن أراك لأحكى لك .. ماذا ستفعل الآن ..

قلت وقد أحسست بابتسامة الانتصار بين شفتى :

- لا شىء ..

قالت بسرعة :

- سأراك ..

قلت مشبعاً بغرورى بنفسى :

- فى النادى ..

قالت :

- لا .. إنى أحس فى النادى بأنى فى الجامعة .. مر على بسيارتك أمام باب العمارة .. إن سيارتك دمها خفيف ..

قلت وأنا أكثر سعادة :

- متى ؟

قالت كأنها تنهى الحديث :

- بعد دقيقتين سأكون فى انتظارك أمام الباب ..

و ألقت سماعة التليفون دون أن تنتظر ردى .. لعلها واثقة فى نفسها إلى هذا الحد .. أو لعلها لم تتعمد ولكنها طبيعتها .. لا تنتظر الرد إلا على ما يستحق الرد ..

وركبت سيارتى .. إنها فعلا سيارة دمها خفيف .. سيارة يابانية خاصة موديل ٧٥ اشتريتها مستعملة بدلاً من أن أشترى سيارة ١٢٨ التى لا أستطيع أن أدفع أكثر من ثمنها

فى أى نوع من السيارات الأخرى .. اشتريتها لأنى أيضاً أحب التباهى بالسيارات ذات الدم الخفيف ..

وقفزت نظيرة إلى جانبى فى السيارة وهى تقول من خلال ابتسامة شفتيها المكتنزتين :

- أهلاً .. أوحشتنى ..

وقلت وأنا أحس بأنى استعدت كل طبيعتى وكل مواهبى :

- أنت السبب فى الوحشة .. مضى عليك خمسة أيام ولم تتحدثى فى التليفون .. لماذا .. يبدو أننى لست الرجل القوى الذى كنت تتصورينه ..

قالت من خلال ابتسامتها الحلوة :

- كنت أفكر ..

قلت ساخراً :

- تفكرين هل أستحق أو لا أستحق ؟

قالت وهى تدير عينيها عنى كأنها تحادث نفسها :

- لا .. كنت أفكر فى مدى قوتك علىّ .. وأنا أكثر صراحة منك .. فقد صارحت نفسى بأن كل ما بيننا لم يعد موضوع أخى عبد الوهاب وروزالين .. ولكنه موضوع بينى وبينك .. ولذلك انتظرت حتى اقتنعت بأن قوتك تفرض علىّ أن أحدثك فى التليفون .. ودعنا من هذا الآن لأحدثك عن زيارة روزالين ..

وأخذت نظيرة تتحدث بلا توقف كأنها لا تريد أن تستسلم لى لأتحدث أنا خشية أن أتحدث عنى وعنها ..

إن روزالين هى التى طلبت من عبد الوهاب أن يصحبها لزيارة العائلة .. ولم يكن عبد الوهاب يريد هذه الزيارة .. إن

العائلة لا دخل لهـا بزواجه .. وسيعيش مع زوجـته داخل بيت العـائلة كأنه يعـيش فى بنسيـون .. لا هو له دخل فى شـئون العـائلة ولا العـائلة لهـا دخل فى شئـونه .. وتكاليـف الحيـاة العائليـة معروفـة .. أبوه يعطى الرصيد لأمـه وأمه توزع على الأفـراد بالاتفاق مع كل منهم بـجانب تكاليف الأكل والشـرب وإدارة باقى احتـياجات العائلة .. وهو يعلم مـقدماً ما سيـفعله أبوه بعد أن تدخل روزالين العائلة سيـرفع من مصروف البيت الذى يعطيه لأمه وسيرفع أيضاً من مصروفه الخاص .. إن أباه يعطيـه الآن مـائة جنيـه فى الشـهر لـعله يرفـعهـا إلى مـائة وخمسين بعـد أن يتزوج .. ولكن روزالين تصر على أن تدخل البيـت وتتعرف بـالعائلة قـبل أن يتم الزواج .. وقد صـحبـها عبد الوهاب دون أن يبلغ أحداً بهـذه الزيارة ، وفوجئت العائلة كلها برؤية روزالين .. وفوجئوا بوجهها الجامد .. ولكنها كانت لطيفـة لا تسحب ابتسـامتهـا من فوق شفـتيهـا الرفيعـتين .. ودخلت الغرفتـين المخصصتين لها هى وزوجـها بعد الزواج .. إنها فى الأصل غرفة عـبد الوهاب التى يقيم فيها وغـرفة أخيه عبـد الستار الذى يقـيم فى الخارج منذ سنوات .. وأعـجبتـها الغرفـتان ولم تعلق بشىء حتى ولا برغـبتهـا فى أن تبدل من الأثاث وتشـتــرى على الأقل فـراشـا جـديـدا هو من حق كل عروس .. وكانت تجوب فى البيت وكل أفـراد العائلة تحيط بها وبعبـد الوهاب .. أمه .. وأخـته المطلقة وأخـته الأخـرى المطلقة أيضاً .. ونظيرة .. وقد اسـتطاعت بذكائها أن تدفع العائلة على أن تطوف بهـا بقيـة الحجرات حـتى المطبخ والحـمام .. إن فى البيت ثلاثة حمامـات ، وقالت روزالين بالإنجليزية وهى تدخل

الحمام القريب من غرفتيها .. هكذا سيكون لنا .. وردت نظيرة بالإنجليزية أيضاً .. هذا من حقك .. ولم يرد أحد من باقى نساء العائلة .. ربما لأنهن لم يفهمن الانجليزية .. والتفوا جميعاً بعد ذلك فى غرفة الاستقبال .. وقالت الأم ضاحكة .. قل لعروستك يا ابنى أننا لا نطبخ الطعام الأمريكانى وعليها أن تدبر أمرها .. وإذا بروزالين ترد عليها فوراً وبلغة عربية سليمة .. إنى لم أعد آكل إلا الأكل المصرى .. إنه أطعم وإن كان يزيد فى الوزن .. وفرحت نساء العائلة بعد أن تأكدوا أنها تتكلم العربية .. ولكن الجلسة التى كانت تجمعهن كانت جلسة باردة حتى أصبح جميع أفراد العائلة فى انتظار أن ترحل عنهم روزالين .. وربما أحست روزالين بذلك فقالت فى بساطة كأنها لا تطلب شيئاً له قيمة .. إنى فى انتظار أن يعود الحاج عبد الغفور حتى أتشرف بمعرفته .. وسكت كل نساء العائلة وهن يتبادلن النظرات كأن كلا منهن تلعن روزالين .. وعادت روزالين تقول وهى تبتسم ابتسامة صفراء .. لا يمكن أن أتزوج قبل أن يبارك الحاج عبد الغفور هذا الزواج .. إنى أعلم أنه يعود إلى البيت فى الساعة الثامنة .. هذا ما عرفته من عبده .. وقد جاءت الساعة الثامنة .. كان نساء العائلة قد انصرفن عن روزالين ودخلت كل منهن غرفتها ما عدا نظيرة .. إنها تجلس بجانبها كأنها تدرسها .. وأذيع أذان العشاء ونظرت روزالين إلى عبد الوهاب صامتة فقام عبد الوهاب وهو يقول لها .. تعالى .. وشدها إلى غرفتها .. وقالت روزالين لنظيرة وهى تخطو مع عريسها .. ألا تصلين العشاء .. وقالت نظيرة ضاحكة .. إن صلاة العروس لا تجوز إلا للعرائس وأنا

لست عروساً .. ثم جرت نظيرة تنادى إخوتها وأمها ليتفرجن على الأمريكية المسلمة وهى تصلى .. وكانت تصلى خلف عبد الوهاب لا بجانبه .. هكذا الشرع كما حدده عبد الوهاب ..

وجاء الحاج عبد الغفور وفوجىء هو الآخر عندما وجد روزالين فى البيت .. ولكنه كأى رجل أعمال شاطر أخفى دهشته .. وجلس معها وهو لا يبدى أى رأى فيها .. هكذا رجال الأعمال لا يبدون إعجابهم ولا اعتراضهم إلا بعد أن تنتهى العملية ..

وصاحت نظيرة وهى تحكى :

– لا تتصور كيف استطاعت روزالين أن تثير اهتمام أبى .. إنه بعد دقائق وجد أنها تحدثه فى صميم أعماله .. فى تجارة الحديد والخردة وفى صناعة وإعداد وقص الحديد .. وهى تقول له عن أسماء الشركات الأوروبية والأمريكية التى تستورد الحديد الخردة وعن أسماء الشركات التى تضم آلات إعداد الحديد .. إنها تبدو وكأنها منذ قررت الزواج من عبد الوهاب قد تفرغت لدراسة أسواق ومصانع الحديد .. حتى أن أبى قال مندهشاً .. إنك ست عظيمة تستطيعين أن تقدمى خدمات كثيرة .. والله شاطر يا واد يا عبد الوهاب .. عرفت تختار .. أرينا كيف وماذا ستعمل .. كأن أبى قد قرر أن روزالين ستدفع ابنه إلى العمل معه ..

وكانت نظيرة تتكلم وأنا أستمع وأقود السيارة .. ورغم غرابة ما كنت أسمعه إلا أنى كنت لا أزال أتمنى أن أتحدث مع نظيرة فى الموضوع الآخر .. موضوعنا .. وقد قدت السيارة بطول شارع الهرم .. ثم دخلت بها إلى شارع ترعة

المريوطية .. حتى سقارة .. ثم عدت .. إلى أن قلت لنظيرة :

- لقد تعبت من السواقة .. هل نذهب إلى مقهى أو محل نجلس فيه ..

وقالت ضاحكة :

- أفضل أن نبقى فى السيارة ..

قلت :

- لو وقفنا بالسيارة فسيأتى عسكرى البوليس .. وندفع .. ثم يأتى خفير .. ثم يأتى كل من هب ودب .. وندفع .. وليس المهم أن ندفع ولكننا لن نكون على راحتنا .. اسمعى .. إن عندى مكتباً خاصاً فى وسط البلد .. هل نذهب إلى هناك بدلاً من الشحططة ..

وقالت نظيرة من خلال ضحكتها :

- سمعاً وطاعة ..

ودهشت لسرعة موافقتها .. إنها لا شك قد فهمت أن المكتب الذى أقصده هو شقة خاصة .. جرسونيرة .. إنها ليست عبيطة .. فكيف توافق بهذه السهولة ..

وقد أحسست بموافقتها أنى استكملت كل ما أريده .. سنذهب إلى الشقة وهناك يحدث ما هو مفروض أن يحدث .. إن البنت قبل أن تدخل الشقة تعرف مقدماً ما سيحدث وموافقة مقدماً على ما يحدث .. وبدأت أقود السيارة بسرعة أكبر .. ولكنى كان يجب أن أستمر فى الحديث حتى أثبت حسن نيتى وكأنى لا أنتظر أكثر من استمرار الحديث .. وقلت :

- إن ما يحيرنى فى كل ذلك هو موقف والدك ..

والتفتت إلىّ نظيرة وقالت وشفتاها مضمومتان كأنها فى حالة إصرار :

- إن بابا هو أعقل العقلاء ..

وقلت وأنا أقاوم لهجة ساخرة تكاد تتغلب على لسانى :

- لا شك أنه أعقل العقلاء ما دام قد نجح فى عمله إلى هذا الحد .. ولكن .. كيف يسمح أعقل العقلاء بأن يتزوج ابنه بهذه الطريقة .. وكيف يتركه دون أن يؤثث له شقة خاصة ليتزوج فيها .. بل كيف يترك ابنه يتزوج وهو بلا عمل .. فى حين أنه يستطيع أن يعطيه كل شىء .. ويفرح به ..

وقالت نظيرة فى صوت جاد :

- إنى أعرف كل ما يقال عن أبى .. الناس تقول أنه بخيل رغم أنه يملك الملايين .. بخيل حتى على أولاده .. وهذا ليس صحيحاً .. إن بابا كما حقق النجاح لنفسه يريد النجاح لأولاده .. وقد نجح أبى وهو معتمد على نفسه .. أنت تعلم وكل الناس يعلمون أنه بدأ عاملا فى وكالة البلح .. بدأ وهو لا يجيد القراءة والكتابة .. إلى أن وصل إلى أن أصبح أنجح وأغنى أغنياء وكالة البلح ، وأصبح بدراسته لعمله كأنه نال فيه أرقى الشهادات العالمية .. ولأن هذا هو أبى فقد أراد أن يربينا بأن يعتمد كل منا على نفسه وعلى كفاحه وعلى جهده كما اعتمد هو على نفسه فى تحقيق نجاحه .. كان كل ما قرره هو أن يحمينا من مرحلة طفولته التى عانى فيها الفقر والجهل فوفر لنا حياة لا نحتاج فيها إلى أحد وأدخلنا المدارس حتى لا ينقصنا العلم .. ثم ترك كلاً منا حراً .. وحتى تكون لهذه الحرية قيمتها فلا يعطى لأحد منا ما يغنيه عن العمل إنما فقط

يعطيه ما يغنيه عن الفقر وعن الشحاذة .. وثق أن بابا يعتبر مثلاً أعلى لكل منا .. أخى عبد السلام نشأ وهو يريد أن يعتمد على نفسه كما كان بابا معتمداً على نفسه .. واجتاز عدة محاولات فشل فيها كلها ولكنه ظل مصمماً على أن يعتمد على نفسه .. فلم يطلب رغم فشله أن يعمل مجرد ابن لأبى .. ابن صاحب العمل .. ولكنه سافر إلى أوروبا وعاش هناك وقيل إنه نجح وربما كان كل ما يؤكد لنا نجاحه هو أنه لم يعد فى حاجة إلى بابا ولا يرسل فى طلب أى مبلغ أو أى خدمة ..

وقلت فى هدوء كأنى أواجهها بالواقع المر :

– ولكن أخوك عبد الوهاب لم ينجح ولم يستطع حتى الآن أن يكون شيئاً ..

قالت ولهجة الإصرار ترن فى صوتها :

– إن عبد الوهاب يرفض أيضاً أن يعمل مع أبى لأنه لا يستطيع أن يتخلص من إيمانه بالاعتماد على نفسه .. وقد تقول أن عبد الوهاب يكره أبى لأنه متباعد عنه ولا يجادله فى شىء .. لا .. إنه لا يكرهه .. إنه يعانى عدم القدرة على الوصول إلى ما وصل إليه أبى .. وسيعيش هذه المعاناة إلى أن يصل .. كلنا نعانى هذه العقدة .. حتى أنا .. إنى أحب بابا إلى حد أنى اعتبره معجزة البشرية .. أعظم رجل فى مصر ، وتبلغ عظمته مستوى العالم .. ولذلك أحاول أن أكون شيئاً أنا الأخرى .. لقد دخلت الجامعة لأصل إلى شىء رغم أنى كنت أستطيع أن أكتفى من التعليم وأتزوج كما تزوجت أخواتى البنات .. ولكن أخواتى فيهن طبيعة أمى .. طبيعة المرأة القدرية المستسلمة لقدرها ؛ ولكنى أنا ورثت طبيعة أبى .. لذلك فإنى

أحاول وأصر على المحاولة إلى أن أكون مثله ..

وقلت وأنا أحاول أن أرضيها :

- إن الناس لا تفهم كل ذلك ..

وقالت بحدة :

- لأن الناس لا تفهم أسرار النجاح .. لا يفهمون كيف نجح أبى .. لو كان أبى ابن باشا وورث عن أبيه الملايين فربما كان قد تركنا نمرح فى هذه الملايين .. لأنه لم يتعب فيها ولا يريد أولاده أن يتعبوا .. ولكن لأنه صنع هذه الملايين بنفسه فهو يريد من أولاده أن يصنعوا مثله .. وأن يعملوا مثله .. ثم لا شك أن أبى يعلم أن كل ما يملكه اليوم سنرثه عنه غدا .. ولكنه لا يعطينا اليوم ما سيكون لنا غدا .. لأنه يريد أن يربينا على الكفاح والعمل .. وأكثر من ذلك .. إن أبى كتب ملكية كل العمارات التى اشتراها وكل الأراضى الزراعية بأسمائنا .. أنا أملك عمارة باسمى وأختى تملك عمارة وأخى عمارة .. و .. و .. كل شىء اشتراه بأسمائنا ورغم ذلك فالناس تعلم أننا ليس لنا حق إدارة ما نملكه .. ليس لنا الحق فى مليم واحد مما تدره هذه العمارات والأراضى لأن أبى يتولى إدارة كل شىء ويضع يده على كل شىء .. ورغم ذلك فقد كنا نستطيع أن نستولى على إدارة هذه الأملاك .. أن صغرى بناته أى أنا بلغت سن الرشد وتستطيع أن تطالب بحقها ، بل إننا نستطيع أن نجتمع كلنا ونرفع قضية واحدة نستولى بها على كل أملاك بابا .. ولكننا لا نفعل .. لماذا .. لأننا فى دخيلة أنفسنا مقتنعون بأنه على حق .. وبأنه يدير العائلة كلها بأسلوب مثالى .. ولأننا رغم كل ما يقوله الناس نحبه إلى حد الاستسلام له ..

قلت وأنا أوقف السيارة أمام العمارة التى تضم الشقة :

- إن الشىء الوحيد الذى لا نختلف فيه هو أن بابا معجزة .. كمعجزة روتشلد وفورد وروكفلر ..

وربما قلت هذه الكلمات لمجرد أن أرضى نظيرة قبل أن تدخل الشقة .. وهى لم ترد علىّ .. ولكنها بسرعة عادت إلى طبيعتها المرحة .. وركبت معى المصعد فى حالة طبيعية كأنها ليست مقبلة على شىء جديد مثير .. ودخلت الشقة ببساطة .. إنها شقة صغيرة .. غرفة نوم وغرفة مكتب وصالة واسعة .. ودخلت نظيرة تطوف بالحجرات دون أن أدعوها .. ثم وقفت تسألنى ضاحكة :

- منذ متى ؟

قلت وأنا أردد ضحكتها :

- منذ أكثر من عشر سنوات .. إنها شقة قديمة .. إيجارها عشرة جنيهات فقط ..

قالت وهى تنظر إلىّ كأنها تكتشفنى :

- إنها رخيصة .. لعلها شهدت أياماً غالية ..

قلت وأنا أقترب منها :

- إن كل ما فيها ذكريات .. وأتمنى أن أعيش فيها واقعاً لا ينتهى أبداً ..

قالت وهى تبتعد عنى :

يبدو أنها لا تحتمل الواقع فتحيله إلى ذكريات ..

وقلت وكأنى أجرى وراءها :

- إنها لم تشهد القوة التى تحيلها إلى واقع .. وأتمنى أن أكون قد وجدت هذه القوة ..

وأمسكت بكفيها بين يدى وقلت مبتسماً :
- لم أسمع لك اسماً يدللونك به ..
وقالت وهى تشد كفيها من بين يدى :
- إنى أرفض أى اسم آخر .. البعض حاول أن يسميني نيني أو ريرى .. ولكن أرفض .. إنى دائماً نظيرة .. نظيرة عبد الغفور البرعى .. إياك أن تطلق علىّ اسماً آخر .. لا نينى ولا ريرى .. أنا فخورة باسم نظيرة .. إنه اسم يحفظ شخصيتى بين كل البنات ..
ومددت ذراعى وأمسكت بها وأنا أضغط عليها كأنّى أشعرها بقوتى وقلت هامساً :
- نظيرة .. هل تعلمين ..
قالت وهى ترخى عينيها عنى :
- أعلم ..
قلت وأنا أقرب وجهى من وجهها وشفتاى تطلان على شفتيها :
- هل أستطيع ؟
قالت من خلال ابتسامة هادئة :
- لا .. لا تستطيع ..
قلت فى رجاء :
- لماذا .. يجب أن نصل ..
قالت وهى تبتعد عنى مرة أخرى :
- ليس قبل أن أقرر .. إن قوتك حتى الآن أقنعتنى بأن أحادثك فى التليفون ولم تقنعنى بعد بأكثر من ذلك ..
قلت وأنا أزفر أنفاسى يائساً :

- أخشى أن تمر أيام أخرى دون أن نلتقى وقد أفقد فيها كل قوتى نحوك .. قوة إحساسى الذى يربطنى بك وقوة إحساسك الذى أتمنى أن يصل إلىّ ..

وقالت نظيرة وهى تلف على قدميها فى أنحاء الصالة كأنها ترقص :

- اسمع .. إنى سأخرج من الجامعة كل يوم وآتى إلى هنا لأذاكر .. سيكون هذا مكتبى .. هل توافق ..

وقلت فى فرحة لم أستطع أن أسيطر عليها وأخفيها :

- إنى سأحقق بذلك شيئاً واحداً ..

قالت ضاحكة :

- ما هو ..

قلت دون أن أتعمد الاقتراب منها :

- إنى سأطمئن على أنى فى كل يوم سأرى ضفيرتك .. إنك لا تعلمين أنها أغلى ما فيك ..

قالت وهى تفتح الباب وتخرج :

- سأنتظر إلى أن تكتشف ما هو أغلى فىّ من ضفيرتى مهما طال انتظارى .. وانتظارك .. تعال .. خذنى إلى البيت .. يجب أن أعود ..

٦

من يومها بدأت حياتى تتغير كأنى أولد من جديد .

بدأت نظيرة تعيش معى كل يوم .. وإنى أذكر اليوم الأول .. كانت قد اتفقت معى على أن تخرج من الجامعة الأمريكية فى الساعة الثالثة أو الرابعة وتأتى إلى شقتى الخاصة مباشرة .. لم يكن اتفاقاً ولكنه قرار اتخذته هى وأعلنتنى به دون أن تحس حاجتها إلى موافقتى .. كأنها واثقة من أنى طبعاً موافق .. ومن ساعتها وأنا أعيش كل إحساسى فى انتظارها .. وتعمدت أن أترك مكتبى فى الشركة الهندسية فى الساعة الواحدة وأذهب إلى الشقة وأبقى كل هذه المدة وحدى فى انتظارها وأنا أحاول أن أقنع نفسى بأن الشقة فى حاجة إلى تنظيف وإعداد قبل وصولها .. ولكنى لم أنظف ولم أعد شيئا ، ولكنى جلست ساهماً مع أفكارى وخيالى وتصوراتى .. ماذا سأفعل معها وبها بعد أن تأتى .. لا يمكن أن تكون ستأتى لنجلس ونتذاكر كما قالت لى .. إنه مجرد كلام .. وكل فتاة

تقـول أى كلام تغطى به نفـسـهـا وهى فى طريقهـا إلى شـقة الشاب .. لا شك أنى سأصل إلى كل شىء .. سيحدث بيننا كل شىء .. لقد قالت لى إن إحـسـاسـها بقوتى .. أى بقوة حـاجتها إلىّ .. دفـعـهـا إلى أن حـادثتنى فى التليـفون .. وأدى حـديث التليفون إلى اللقاء .. وأدى اللقاء إلى أن دخلت أمس إلى شقتى الخاصة .. ولكنهـا لم تعط أكثر . إن إحسـاسها بقوة حاجـتها إلىّ لم يدفعها إلى أكثر من ذلك .. ولكنه دفعها إلى أن تقرر أن تأتى إلىّ كل يوم لتـذاكر .. أى أن إحـسـاسـها دفـعـهـا إلى أن تعطى أكثـر وتأخذ أكثر .. وهى لن تعطى ولن تـأخذ لمجرد أن تذاكر دروسها وهى جالسة بجانبى ..

وهام بى خيالـى حتى وجدت نفسى أقوم إلـى غرفة النوم وأحاول أن أعيـد إعداد كل ما فيها ، ووجـدت نفسى أقف أمام الفراش طويلا كـأنى أستعيـد آخر ذكرياتى ثم وجـدت نفسى أنزع عنه الملاءة والغـطاء وأخـرج من الدولاب مـلاءة نظيـفـة وغطاء آخـر بل إنى أعدت كـساء المخـدات .. كل شىء يجب أن يكون نظيفاً .. إنى أبدأ كل شىء من جديد ..

وفتحت لها الباب فى الساعة الثالثة والنصف ..

واستقبلت سمرتها الخفيفة .. وضفيرتها الرائعة المدلاة فوق صدرها الذى يشـبه نهـدة حلوة من تنهدات مـلاك من ملائكة النعيم .. وشفـتاها المكتنزتان اللتان تحملان دعوة صـامتة فى صمتها ضجيج .. وقوامها الرائع داخل ثوبها المحتشم وإن كان يكشف عن ذراعيها .. قوام بنت البلد .. وقوام بنت البلد يختلف عن قـوام البنت المودرن حتى لو اتـفق معـه فى خطوطه .. إنه قوام يحمل معنى خاصاً ..

ودخلت بلا تكلف وبلا تردد وهى تقول دون أن تمد يدها لتصافحنى :

– أهلا ..

وقلت وأنا أغلق الباب وراءها وأتبعها وهى تخطو فى جرأة داخل الشقة وكأنى أجر وراءها :

– لقد انتظرت طويلا ..

وقالت ضاحكة :

– ستتعود على مواعيد الجامعة الأمريكية ..

وتعمدت أن أجلس على مقعدى فى الصالة قبل أن أدعوها للجلوس كأنى أنا الآخر أتعمد رفع الكلفة بيننا ، ولكنها صاحت فوراً :

– لا.. لن نجلس هنا .. فى غرفة المكتب .. إن معى تلالاً من العمل .. تصور أنى يجب أن أعيد كتابة بحث كامل عن التفسير الاقتصادى للإنتاج الزراعى ..

كانت تتكلم وهى تدخل غرفة المكتب كأنها صاحبة البيت تتحرك فيه كما تشاء .. وقمت أجرى وراءها .. وألقت حقيبة كتبها ثم أطلت فوق المكتب فى لفتة سريعة ثم بلا أى تعليق شدت فوطة صفراء كانت ملقاة على الأرض وأخذت تمسح بها سطح المكتب فى حركة سريعة .. إن المكتب فى حاجة فعلا إلى تنظيف .. ليس لى ذكريات قريبة فى غرفة المكتب .. ولكنها تمسح المكتب بلا أى كلمة كأنها هى المسئولة عن نظافة هذا المكتب ولست أنا .. ثم جلست على المقعد وهى لا تكف عن الكلام عن أحداث الجامعة .. وبدأت تفتح حقيبتها وتخرج الكتب والأوراق وتعدها أمامها .. كأنها فعلاً ستبدأ فى

المذاكرة .. ولم أصدق .. واقتربت منها ومددت يدى أغلق الكتب التى أمامها وقلت وأنا أحاول أن أقترب أكثر :

– لن تكون هناك مذاكـرة للأبحاث الدراسية اليـوم .. اليوم نحن فى حـاجـة إلى أن أذاكـرك وتذاكـرينى .. أن أدرسك وتدرسينى ..

ومددت يدى أكثر أمسح على شعرها ..

وابتعدت عنى فى رفق وقالت وابتـسامتها الحلوة تقطر من بين شفتيها المكتنزتين :

– حسين .. من أجل خاطرى .. لا تبدأ شيئاً قبل أن أبدأ أنا ..

قلت فى دهشة :

– ماذا تقصدين ..

قالت من خلال ابتسامتها :

– إنى أريد أن أكـون مـعك على طبـيـعتى لا عـلى طبيـعـة الظروف التى تجمعنا .. أنا مـعك الآن وحدك ولكن ليس معنى هذا أن نبدأ لمجـرد أننا وحدنا .. أريد أن أحس بالسعـادة معك حـتى دون أن نبدأ .. وإلى أن تدفـعنا طبـيـعتنا إلى أن نبـدأ .. وطبيعـتى الآن تدفعنى إلى التفرغ للمذاكـرة مع سعادتى بأنى بجانبك ..

ووجـدت نفسى أبتـعد عنهـا كـأنى أريد أن أثبت بأنى من القوة بحـيث لا أحتاج لأن أبدأ قبل أن تحـتاج هى .. وقلت فى غيظ :

– أنت تذاكرين .. ماذا أفعل أنا .. إنى لم أحسب حساب هذا اليوم فانتهيت من المذاكرة منذ عشر سنوات .

وضحكت ضحكتها المنغمة كأنها عزف سيمفونى وقالت :

- تستطيع أن تقـرأ .. أو تستطيع أن تنام إذا كنت من هواة النوم بعد الظهر ..

وقلت وأنا أروح وأجيء أمامها فى عصبية :

- إنى لا أنام بعـد الظهـر إلا إذا تناولت غـداء دسـمـاً وأنا لم أتغـد حتى الآن ولا أعـتقـد أن فى البيت شـيئـاً يؤكل .. إلا أنت ..

وقالت من خلال ضحكتها :

- سأعـاقبـك لأنك نسيت الغـداء وعقـابى هو أنى لن أدعك تأكلنى .. إنى تناولت ساندويتش فى الجامـعة قبل أن آتى إليك وإنى رحـمة بك سـأتركك تنزل إلى الشارع وتشـترى شـيئـاً تأكله وأبقى أنا وأذاكـر وحـدى وإن كنت لم أعـد أتصـور أنى أستطيع أن أذاكر وأنا وحدى ..

وقلت بسرعة :

- لا .. سأعاقب نفسـى .. ذاكرى .. وعن إذنك ..

واقتربت من المكتب وبدأت أفتـح أدراجه المتربة .. لقد خطر على بـالى فـجـأة أنى منذ سنـوات كنت أحـاول أن أقـوم بمشروعات ثم أعـود وأهملها مكتفياً بعملى فى الشـركة .. لقد خطر على بالى أن أراجع هذه الأوراق .. وأخرجتها من الأدراج وأخذت أزيل عنها التـراب ثم حملت مقعداً وضعـته على حافة المكتب بجانب نظيرة وبدأت أعمل .. ونظيـرة سعيدة .. تذاكر .. ثم نتعب فتـرة فنتحدث عن الجامعة الأمريكـية أو عن الشركة التى أعمل بها .. أو عن ذكرياتـى وذكرياتها .. وأهلى وأهلها .. أو عن أخيهـا عبد الوهاب وزواجه من روزالين .. وقد سـألتها ضاحكاً عندما جاء ذكر أخيها :

– هل دفع المهر بالدولار أم بالجنيه المصرى ؟!
وقالت جادة :
– هل تعرف أنه اتفق مع روزالين على ألا يدفع شيئاً .. لا مهر ولا شبكة ولا شيء لله ..
وقلت في دهشة :
– وهل قبلت روزالين ؟
وقالت نظيرة في بساطة :
– لقد قال لروزالين بصراحة أنه لا يستطيع أن يدفع إلا إذا طلب من أبيه لأن نصيبه الذى يتقاضاه حتى اليوم لا يتجاوز مائة جنيه في الشهر .. وهو لا يصلح ليكون مهراً ولا يكفى لشراء شبكة .. وهو في الوقت نفسه لا يريد أن يأخذ من أبيه ..
وقلت مقاطعاً :
– المفروض أن يدفع أبوك دون أن يطالبه عبد الوهاب ..
وقالت بسرعة وحماس :
– لا .. إن بابا وضع نظماً أعتبرها في منتهى الرقى .. إنه مسئول عن ولديه ليكفل لهما الحياة إلى أن يدبر كل منهما حياته ويستغنى عنه .. مسئول عنهما إلى أن يتما تعليمهما وإلى أن يعملا ويكسبا .. ولكنه ليس مسئولا عن المطالب الخاصة لكل منهما .. إن كلاً منهما عليه أن يسعى ويكافح إلى أن يحقق لنفسه مطالبه الخاصة .. فهو لم يشتر لأحد منهم سيارة لأنه يعتبر السيارة مطلباً خاصاً يجب أن ينتظر كل منهما إلى أن يستطيع شراءها .. وطبعاً هناك سيارة للعائلة كلها ولكن لا أحد منا يستعملها كأننا نريد أن نقول لبابا إننا

لسنا فى حاجة إليها .. وكذلك إذا أراد أحد الولدين أن يتزوج فعليه أن ينتظر حتى يستطيع أن يدفع مصاريف ومطالب الزواج والحياة الزوجية ، وهذا طبعاً بخلاف ظروف البنات .. ودعنا الآن من الكلام .. لنعد إلى المذاكرة .. واحد .. اتنين .. تلاته .. إلى المذاكرة ..

وقلت متوسلاً :

– ثانيه واحدة من فضلك .. كيف وافقت روزالين على أن تتزوج بلا مهر ..

وقالت بسرعة :

– قلت لك إنها ليست طبيعية وإن كنت أحس بأن فى رأسها مشروعات كثيرة لهذا الزواج ..

وعادت إلى المذاكرة وعدت إلى مراجعة مشروعاتى وقد كنا نتعمد فعلا ألا يأخذ منا الحديث إلا دقائق نعود بعدها إلى العمل .. وكنت قد اندمجت فى هذا الإطار وبدأت أحس فعلا بالسعادة .. سعادة من نوع جديد .. إلى أن أصبحت الساعة السادسة وبدأت نظيرة تجمع أوراقها وكتبها قائلة فى مرح :

– المفروض أنى أستطيع أن أبقى حتى الساعة الثامنة .. ليس مسموحاً أن أبقى خارج بيت العائلة إلى ما بعد الساعة التاسعة .. تقاليد .. عائلة محافظة .. ولكنى أحس الآن بالتعب ربما لأنى أذاكر وأحاسيسى تلعب فى ملعب جديد .. وسامحنى اليوم .. يجب أن أذهب ..

وقامت واقفة تحمل حقيبتها ووقفت أمامها وقد تعلقت عيناى بضفيرتها .. لا يمكن أن ينتهى اليوم بلا شىء حتى مجرد لمسة لضفيرتها التى يتجمع فيها كل ضعفى .. وقالت

نظـيـرة ضاحكة وكـأنها اكـتشفت مـا يدور فى إحسـاسـى .. وقالت :

– لا تبدأ .. إنى لم أبدأ ..

ثم فتـحت الباب وسبـقتنى خـارجة ولحقت بهـا .. وركبت بجانبى فى السيارة وأوصلتـها إلى باب العمارة ونحن لا نكف عن الحديث ..

وقلت وهى تفتح باب السيارة لتنزل :

– غـــداً ..

وقالت وهى تقفز من السيارة :

– طبعـــاً ..

وفى الغد طـفت بمحال البقـالة لأشتـرى للشقة خـزيناً من المأكولات .. اشتريت عدة أصناف من الجبن ، واشتريت أصنافاً من اللحم المحفـوظ ، وعدداً من البيـضات لعلهـا تحب البيض ، واشتـريت علبة من الفـول المدمس المحفـوظ .. إنى أحب الفول المدمس ولا أستطيع الاستغناء عـنه ..واشتريت أنواعا من علب التونـة والسردين .. ولم أنس أن أشـترى البن لزوم القـهوة .. اشتريت كثيراً .. ولم أكن أنتـقى ما أشتريه تحت تأثير صورة نظيـرة أمامى كـبنت بلد وأتعمـد أن أنتقى المأكـولات البلدى .. لا .. إن نظيـرة ليست بـنت بلد إلا عندما أنظـر إليهـا كامـرأة ولكنها فى تقـديرى أحس بها كفتـاة راقية طالبة فى الجـامعة الأمـريكية ، ابنة مليـونيـر لذلك كنت أتعمـد أن أشتـرى أرقى المأكولات المسـتوردة .. ولعلنى كنـت أيضاً أريد إقناعـها بأنى رجل كـريم لا يبـخل عليـها ولا عـلى نفسـه .. لست بخـيـلاً كأبيها .. لذلك كنت أتعمـد أن أشترى الغالى .. وحملت كل هذه

المشتريات فى كيسين ثقيلين منتفخين .. وذهبت إلى الشقة ودخلت تواً إلى المطبخ .. وأخذت أنظف فى الأرض وفى الصحون . ثم اطمأننت إلى الثلاجة .. إنى بالأمس كنت قد نسيت أن أدير الثلاجة وبقينا أنا ونظيرة نشرب الماء العادى ولعلنا لم نشرب .. ولكن الثلاجة الآن جاهزة .. وجمعت فيها ما اشتريته وأنا أرتبها كأن من طبيعتى أن أحتفظ بالثلاجة دائماً وهى زاخرة بما فيها .. لقد قضيت ساعات وأنا أعد كل شىء لاستقبالها .. إلى أن جاءت فى الساعة الثالثة والنصف كموعد الأمس وفوجئت بها تحمل مع حقيبتها الدراسية قرطاساً كبيراً ثقيلاً .. وقلت :

- ما هذا ؟

قالت فى بساطة ست البيت وهى تخطو بسرعة نحو المطبخ :

- خشيت أن تكون قد نسيت أن تتناول غداءك اليوم أيضاً فأشفقت عليك ..

وقلت وأنا أجرى وراءها إلى المطبخ :

- إنى لم أتناول غدائى ولكنى أعددت كل شىء ..

ووضعت القرطاس الذى تحمله ووقفت تتفرج على ما فى الثلاجة التى كنت قد فتحتها كأنى أقدم لها هدية .. وقالت كأنها فرحت بالهدية :

- هذا كثير .. اسمع .. سأطهو لك غداءك حتى تطمئن على مستقبلك .. إنى طباخة ماهرة وستشهد لى .. ماذا تريد أن تأكل من كل هذا ..

وأخذنا نحن الاثنين ننظر ونقلب فيما اشتريته ونحن نتضاحك إلى أن قلت :

– لو أردت الحق فإنى اشتريت كل هذا لأنى لا أعلم ماذا تحبين .. أما أنا فأحب الفول المدمس ..

قالت من خلال ضحكتها :

– سأعد لك طبق فول بالبيض .. وسأعد بجانبه طبقاً من لحم اللنشن والسوسيس وبجانبه جبن ركفور .. فإنى أحب اللنشن والركفور ..

وشدت علبة الفول المدمس المحفوظ وناولتها لى قائلة كأنها تأمرنى :

– افتح هذه ..

ثم أخذت تعد الطبق وتخرج لفافة الزبد التى اشتريتها وتصل إلى كل ما تحتاج إليه دون أن تسألنى شيئاً ، وتظل تبحث فى رفوف المطبخ وأدراجه حتى تجد ما تريد .. لعلها تتعمد دائماً ألا تبدو غريبة عن البيت .. إنها ست البيت وتعرف كل شىء فيه .. وكنت قد فتحت علبة الفول وأخذتها نظيرة منى وبدأت تعد فيها ثم قطعت الزبد ووضعته فى الطبق ، ووضعت الطبق على البوتاجاز وهمت أن تشعل من تحته النار .. إن البوتاجاز لا يشتعل .. إن الأنبوبة فارغة حتى نهايتها ..

وغرقنا فى الضحك وقالت :

– لعله ليس من حقك بعد أن أطهو لك ..

وفتحت القرطاس الذى جاءت به .. إنه مزدحم بقطع الساندوتش .. وزجاجة كوكاكولا .. وقراطيس الشاى .. وفاكهة .. تفاحتين وبرتقالتين .. وأخذنا نأكل فى مرح .. لا نريد أن نكف عن الأكل .. لن نشبع أبدا .. ثم لم نكن

نستطيع أن نشرب شاياً أو قهوة لفراغ البوتاجاز .. وشملني صمت هادىء وأنا أنظر إليها بكل عيني .. هل نبدأ .. وهي صامتة أيضاً وعلى شفتيها ابتسامة تقول لي .. لا .. لن نبدأ .. وقلت لها كأني أتوسل :

– لقد أكلت كثيراً وأستطيع أن أنام ..

كنت كأني أدعوها للنوم معي ..

ولكنها قالت من خلال ابتسامتها وهي تبتعد عني :

– سأبدأ المذاكرة .. لقد ضحينا بالعلم في سبيل الأكل ..

وسرت وراءها منهاراً يائساً وقلت كأني أسخط على الدنيا :

– لن أنام .. سأذاكر أنا أيضاً ..

والتفنا حول المكتب .. وبعد دقائق كنت كأني نسيت حرماني منها وانشغلت فعلا في العمل بينما هي تذاكر .. إني أحس بحماس شديد لإعادة بحث مشروعاتي الخاصة التي كنت قد أهملتها .. وكنا ننقطع عن العمل دقائق لنتحدث ونضحك ثم نعود ونعمل ..

وبقيت معي يومها حتى الساعة الثامنة ، وقبل أن تخرج دخلت المطبخ وأخذت تعيد تنظيم كل شيء وتغسل الصحون والشوك والسكاكين وقالت ضاحكة وأنا بعيد عنها في غرفة المكتب :

– كيف ستغير أنبوبة البوتاجاز ..

وقلت في بساطة كأنها ليست غريبة عني :

– سأقول للبواب ..

وانتهت من المطبخ وعادت إليّ وقلت لها وأنا أجد نفسي ملتصقاً بها دون تعمد :

- إنك تنسين دائماً مفتاح الشقة ..

ثم أمسكت بكفها ووضعت فيه مفتاح الشقة واستطردت قائلا :

- حتى لا تنتظرينى ولا أنتظرك .. إننا فى بيتنا ..

وفتحت كفها ونظرت إلى المفتاح من خلال ابتسامة فرحة كأنها تنظر إلى دبلة الخطوبة ، ثم مالت علىّ وقبلتنى على خدى قبلة سريعة ، ودون أن تقول شيئاً شدت حقيبتها وجرت بها إلى الباب ، وأنا أجرى وراءها هائماً فى سعادتى رغم حرمانى ..

ولم يكن قد بقى إلا يومان على يوم كتب كتاب أخيها عبد الوهاب وروزالين .. يوم الخميس .. وفوجئت بعبد الوهاب يتصل بى فى تليفون الشركة التى أعمل بها .. إنه لم يتصل بى أبداً من قبل .. لقد تعودنا أن نلتقى صدفة فى الشارع .. حتى أنه إذا أراد أحد منا أن يلتقى بالآخر يكتفى بالبحث عنه فى الشارع .. كيف اتصل بى فى التليفون وكيف عرف النمرة .. وقال عبد الوهاب يقطع دهشتى بصوته الهادىء الخجول :

- إن العقد سيتم بإذن الله بعد غد ..

وقلت ضاحكاً :

- أعرف .. مبروك مقدماً ..

وقال متردداً :

- هل تقبل أن تكون شاهدا ؟!

قلت فى مرح :

- يشرفنى .. من لى أعز منك ..

قال كأنه فرح :

- هل نذهب معاً وأمر عليك فى النادى .. ستكون معى أختى نظيرة ..

قلت بسرعة :

- لا .. ليس فى النادى .. سأمر عليك أمام باب العمارة ..

وقال عبده بعد أن تردد قليلا :

- فى الساعة الخامسة إلا ربع .. أو لتكن الرابعة والنصف ..

وقلت فى وقار :

- اتفقنا ..

وقد أحسست ساعتها أنى لم أرد أن نتقابل فى النادى لأنى لم أكن أريد أن تدخل نظيرة النادى .. لماذا .. ربما لأن حبى لنظيرة وصل إلى الحد الذى يصل إليه كل حب .. حد حرمانها من دخول نادى الجزيرة ..

وقالت لى نظيرة عندما التقينا يومها أن أخاها قال لها إنه يريد أن يتصل بى ويخشى ألا يلتقى بى فى الشارع كما تعود .. فقالت له أن يتصل بى بالتليفون .. وقال لها إنه لا يعرف لى رقماً من أرقام التليفون .. فسألته بذكائها .. أين يعمل .. وقال لها إنى أعمل فى الشركة الهندسية .. فقالت إنها ستبحث له عن رقم تليفونى .. وتركته ودخلت .. طبعاً لم تبحث فى دفتر التليفون ولكنها عادت وقالت له عن الرقم الذى تعرفه والذى تحادثنى به كل يوم ..

وجاء يوم الخميس .. ومررت بسيارتى على باب العمارة حيث كان ينتظرنى عبد الوهاب وبجانبه نظيرة .. وقد أخطأت نظيرة وهمت أن تركب بجانبى كما تعودت ولكنها تنبهت بسرعة وفتحت الباب الخلفى وتركت أخاها عبده يركب بجانبى .. وقد سألته فوراً :

- لماذا لم يأت والدك ليحضر كتب الكتاب ..

وقال عبد الوهاب فى حسم كأنه يشعرنى بأنه لا يريد أن أسأله مثل هذا السؤال :

- إنها مسألة خاصة لا دخل لوالدى فيها ..

قلت كأنى أهمس لنفسى :

- عجيبة .. ووالدتك وأخواتك البنات .. العائلة ..

وقال بنفس اللهجة النفورة :

- إننا ندع كلاً منا يهتم بشئون نفسه .. لا دخل لأحد فى شئون الآخر .. وقد جاءت نظيرة لأنها هى التى بدأت الحكاية كلها ..

وفضلت السكوت ..

ولم يكن فى بيت روزالين .. أقصد بيت فوزية .. أحد غريب مدعو إلى حفل عقد القران .. لم يكن فى الواقع حفلا .. لم تكن هناك سوى خيرية ابنة عمى .. ولم تكن مدعوة ولكنها جاءت عندما سمعت الخبر لمجرد أن تتفرج كعادتها مستغلة صداقتها لفوزية .. وجلس عبد الوهاب بجانب روزالين دون أن يبدو عليهما أنهما على وشك عقد القران .. بل كان كل منهما جالساً متباعداً عن الآخر .. ونحن من حولهما نحاول أن يبدو عليهما المرح ونفتعل النكات والتعليقات ، وبيننا العربة الصغيرة التى تقدم عليها المشروبات وهى تحمل الحلال والحرام .. ولكنى فى الواقع وجدت نفسى ساعتها أطيل النظر إلى نظيرة وهى أيضاً تطيل النظر إلىّ ولكنها قطعاً لم تكن تعرف ما يدور فى خاطرى .. لقد بدأت من ساعتها أتساءل .. لماذا لا أتزوج أنا الآخر .. أتزوج نظيرة .. ولم ينته تساؤلى بى إلى قرار .. إلى

أن جاء المأذون .. ولم يكن المأذون يستطيع أن يعـقد قراناً بين مصـرى وسيدة أجنبـية فـالعقد فى هذه الحـالة يتم فى مكتب الشهر العقارى .. ولكن عبد الوهاب صمم على أن يقوم مأذون بكتابة العقد حتى يحتفظ بالمظاهر الشرعية .. ويكفى أن زوجته مسلمة حتى لو كـانت أجنبية .. أما الشـهر العقارى فـسيذهبان إليه بعد أيام ليعيدا تسجيل زواجـهما مراضاة للرسميات التى تفرضـها الحكومة .. وأتم المأذون إجـراءات العقد والإحـساس بالشـرعية يطغـى على كل كلمة يقـولها عـبد الوهاب وتقـولها روزالين .. إن كل مـا يحسـان به هو الشرعـية .. ووقـعت أنا كشاهد ثم وقع مؤنس زوج فوزية كشاهد آخر .. .. وأحسست أن كل شىء قد انتهى . وقلت للعريس عبد الوهاب :

– هل ستـأتيان مـعى لأحملكمـا إلى البيت .. بيت الـعريس والعروسة ..

ولاحظت أن روزالين نـظرت إلى فـوزية كـأنهـا تـسـألهـا أو لعلها كـانت تستغيث بـها .. وقالت فوزية ضـاحكة ضحكة مفتعلة :

– لا.. أنا سأوصلهما إلى البيت .. لا تنس أنى أم العروس ..

وقلت ضاحكاً :

– أختها ..

وقالت فوزية من خلال ابتسامة كأنها رثاء :

– إنى أمها وأختها وأحيانا أكون ابنتها أيضاً ..

وقلت واقفاً وأنا أتقدم إلى العريس والعروس :

– إذن أستأذن .. واعـملا حسابكما أنكما مـدعوان يوماً إلى العشاء .. فى شهر العسل لا بعده ..

وسمعت نظيرة تقول كأنها تقبض عليّ :

– خذنى معك ..

ونظر إليها أخوها عبد الوهاب دهشاً .. إنه دائماً لا يقر أن تكون نظيرة معى وحدها .. ولكنه لم يتكلم ..

وخرجت أنا ونظيرة ..

وقلت لها وهى بجانبى فى السيارة وقد بدأت أتكلم فى لهجة جادة كأنى قررت أن أواجه المشكلة :

– إننا لم نصل بعد إلى الساعة التاسعة .. نستطيع أن نبقى معا قليلا ..

قالت ضاحكة :

– إنى أستطيع أن أستغل زواج عبده وأدعى أنى كنت سهرانة فى الفرح وأبقى معك طويلا ..

وقلت دون أن أبدى فرحتى :

– إنى أريد أن أذهب إلى البيت .. بيتنا ..

قالت من خلال ابتسامتها :

– وأنا أيضاً .. وأعدك ألا أذاكر ..

وأخذت أقود السيارة وأنا صامت وهى أيضاً قد صمتت كأنها أحست بأنى سأثير مشكلة ولكنها ظلت محتفظة بابتسامتها التى أحبها ..

ووقفنا أمام باب الشقة وقلت لها بلا ابتسام :

– افتحى ..

كنت أريد أن أشعرها أكثر بأنها تدخل بيتها .. واتسعت ابتسامتها وزغردت يدها بفرحة وهى تمدها إلى حقيبتها وتخرج المفتاح وتفتح الباب ..

وسبقتها داخلا إلى أن تخرج مفتاحها من قفل الباب وجلست فوراً على المقعد فى الصالة ولحقت بى وجلست على المقعد المقابل وهى تنظر إلىّ كأنها تتعجلنى لأقول سرى .. وقلت لها وأنا أنظر إليها بكل عينى :

– نظيرة .. لقد قررت أن أتزوج ..

وانكمشت ابتسامتها وقالت فى دهشة :

– تتزوج من ؟

قلت كأنى ألومها :

– طبعاً أتزوجك ..

وأرخت عينيها وقالت كأنها تتنهد فى ضيق :

– أنا لن أتزوج ..

قلت فى صوت عادى كأنى أنهرها :

– تقصدين إلى أن تنتهى من الجامعة ..

قالت كأنها تتنهد نهدة أخرى :

– ربما لن أتزوج أبداً ..

قلت فى صوت مرتفع :

– إنى أتكلم جادا ..

قالت فى هدوء وقد عادت ترخى عينيها :

– وأنا أيضا أتكلم جادة ..

وارتفع صوتى كأنى أصرخ :

– ما هذا الجنون .. كيف ترفض بنت الزواج من حبيبها .. أنا واثق ومتأكد من حبك .. فلماذا لا نتزوج .. لماذا ؟

وقالت ورأسها يسقط فوق صدرها كأنها تستسلم لمصيبة :

– لأنى ابنة عبد الغفور البرعى ..

قلت فى دهشة :

- وماذا فى ابنة عبد الغفور البرعى أو فى الحاج عبد الغفور نفسه ؟

وقالت وهى تبتسم ابتسامة ضيقة كأنها ترثى بها نفسها :

- إن بناته معقدات من الزواج ..

وصحت وأنا أتعجلها حتى نصل إلى نتيجة :

- ما الذى يجعلكن معقدات .. إنه أب تفخرن به ويفخر به أولاده ..

وسكتت برهة كأنها تعد محاضرة ستلقيها ثم رفعت رأسها إلىّ واعتدلت فى جلستها وقالت فى صوت خفيض كأنها تحادث نفسها :

- إن بابا مليونير .. وهو مليونير صنع نفسه .. أى أنه لا شىء إلا أنه مليونير .. ليس واحدا من مجتمع المليونيرات .. وليس من عائلة كبيرة .. وليس له نفوذ أو منصب حكومى .. وجاهل لا يجيد القراءة والكتابة ولا يتكلم إلا فى عمله .. وكل من يتقدم إليه من الغرباء عنه يتقدم إلى المليونير المشهور .. صاحب الفلوس .. وكل من يفكر فى الزواج من إحدى بناته يكون فكره محصورا فى الزواج من ابنة الرجل الغنى وعلى طمع فى أن يحقق له هذا الرجل الغنى حياة كلها فلوس .. إن أختى الكبيرة سنية تقدم لها شاب خريج كلية الحقوق ويعمل فى وظيفة محترمة فى الحكومة ومن عائلة كبيرة معروفة .. أبوه كان وزيرا .. ثم إنه هو نفسه شاب رائع وسيم يفتح النفس .. ورحبت به سنية .. أعجبها إلى حد الإصرار عليه .. ووافق بابا اعتماداً على الحسابات التى أجراها عقله .. ثم كانت

أول أزمة عندما فوجىء الشاب بأن عليه أن يبحث عن شقة .. كيف يبحث عن شقة وحماه يملك أربع عمارات فى الزمالك بينها عمارة باسم خطيبته .. لا يمكن .. ولكن بابا أصر .. إن الشقة تدخل فى مسئولية الزوج .. الرجل .. ثم إنه يجب أن يثبت أنه قادر على أن يكون رجلا .. وكثر الكلام حتى كادت الزيجة أن تفشل .. وأختى سنية تريد هذا الشاب وتبكى .. لقد استطاع أن يقنعها بنفسه إلى أن أحبته .. وتدخلت أمى .. وبذلت كل ما تستطيع بأسلوبها الذى تربت عليه مع أبى إلى أن أقنعته بأن يتولى هو تخصيص الشقة .. هل تدرى ماذا فعل .. إنه لم يترك لهما شقة فى إحدى العمارات التى نملكها ولكنه اشترى شقة فى عمارة لا يملكها ولم يكتب الشقة باسم العريس ولا باسم العروسة ولكنه كتبها باسم أخى عبد السلام الذى يقيم فى انجلترا .. وتم الزواج رغم قرف العريس ، بل إنه استسلم لرأى أبى فى ألا يقيم فرحاً كبيراً وأن يكون زفافاً عائلياً فى البيت .. وأصبح أبى بعد ذلك يدفع لأختى سنية مائة جنيه فى الشهر .. ولا مليم زيادة .. لم يكن بخيلا على عكس ما يقوله الناس ولكنه كان عاقلا .. إنه يدفع لابنته مساعدة رمزية وعلى زوجها أن يثبت أنه رجل يستطيع أن يتحمل مسئولية عائلته وعلى زوجته أن تتحمله مهما قل دخله .. هذا هو الزواج .. وأبى نفسه تزوج وهو لا يربح سوى القروش وتحملته زوجته إلى أن أصبح مليونيرا .. ولكن زوج أختى سنية لم يستطع أن يثبت أنه رجل .. وصدم فى أطماعه التى اعتمد عليها فى زواجه .. فطلق أختى بعد عام واحد .. هو الذى طلقها ورماها لتتعذب وسط ملايين أبى .. وكان أبى مطمئناً

إلى أن هذا الزوج لن يخرج منه بشىء .. فقد ترك الشقة وأسرع أبى بتأجيرها .. وهو لا يمكن أن يوافق على عودته كزوج لابنته لأنه لم يثبت أنه رجل يستحق إعجاب أبى وزهوه به ..

وتنهدت نظيرة وأنا ساكت أحس كأنى فوجئت بواقع جديد .. ثم عادت نظيرة تقول وبين شفتيها ابتسامة مسكينة :

- ونفس الأسباب ونفس الحكاية تكررت عندما تزوجت أختى الثانية بهيرة رغم أنها تزوجت ابن أحد أصدقاء أبى .. إنه هو الآخر ابن لأحد تجار وكالة البلح .. كان هناك تقارب كبير بين المجتمع الذى تعيشه أختى ومجتمع عريسها .. ولكنه هو الآخر تقدم إليها لأنها ابنة مليونير .. وقد أقيم حفل زفاف هائل فى قاعة هيلتون رغم معارضة أبى الشديدة .. فوالد العريس رغم أنه صديق لبابا إلا أنه يختلف عنه اختلافا تاماً فهو رجل اجتماعى يحب المظاهر ويعيش المجتمعات ويتفاخر بثرائه وينفق الكثير فى إشباع هذه الشهوة .. ولم يستطع أبى أن يستمر فى معارضته لإقامة حفل الزفاف الهائل لأنه لم يدفع نفقات إقامته ولكن الذى دفع كل شىء هو صديقه والد العريس . إن إقامة حفل الزفاف تدخل فى مسئوليات العريس .. وكأن بابا كان يتعمد الانتقام من صديقه بأن يجعله يدفع أكثر ، فدعا إلى الحفل كل العاملين معه وكل من لهم علاقة بعمله من كبار الموظفين والشخصيات ، وتركنا نحن أيضا ندعو إلى الحفل من نريد ، وقد دعوت أنا إلى الحفل كل صديقاتى وكثيرا من أساتذة الجامعة الأمريكية .. وقد ذهب أبى إلى الحفل وهو مرتدٍ جلبابه وعلى رأسه لبدته التى

يحيطها بشال ملون ، ولم يحاول أن يغير أى شىء من مظهره الذى عـرف به .. ووقف مع صديـقه يسـتقـبل المدعـوين وهو قـرفـان من كل هذه المظاهر ثم انـزوى على مـائدة يحـيط به العاملون معـه فى مكتبه وأرسل أحدهم إلى الخـارج وعاد إليه بشيشة كاملة تفرغ لتدخينها طول الحفل .. أما أمى فقد تعمدت أن تصنع ثوباً جديداً للحـفل ولكن ذوق أمى فى اختيار ثـيابها لم يتغـير أبدا منذ كـان زوجهـا عاملا ومنذ قـبل أن يصل إلى نجـاحه وإلى ثـرائه .. ولا تتصـور حـالنا وأبونا يجلس بهـذا المظهـر الشـــاذ وسط هذا المجـتـمع وفى الهـــيلتـون .. وربما أحسست بابتسامات الناس وهمساتهم وهم ينظرون إلى أبى .. ولكنى كنت كـأنى أتحداهم فكنت أصـحب كل صديقـاتى وكل أساتذتى فى الجـامعة وأقدمـهم إلى بابا وماما .. كأنى أتعـمد التفاخر بأبى رغم أنه يختلـف فى مظهره عن أفراد هذه الطبقة وعن مظهـر صديـقه أبى العـريس الذى كـان يتعـمـد التظاهر بالمظاهر المودرن .. على كل حال فإن صداقة أبى بأبى العريس لم تكن صداقة شخـصية خاصة ولكنها صداقـة عمل وصداقة الارتباط بمجال واحد هو مـجال وكالة البلح .. ولم يكن الزواج مجرد زواج .. كان للعـريس هدف .. وكان هدفه من الزواج أن يدخل مع أبى فى مشـروع جديد كبـير لصناعة البلاسـتيك .. ولكن أبى رفـض أن يدخل مـعـــه فى أى مـشـــروع ربما لأنه اكتشف أن هذا الشـاب لم يكتسب ثقة أبيه فيما يتحدث عنه من مشروعـات .. فكيف يرفضه أبوه ويقبله أبـى .. وظل أبى كما هى العادة لا يمد أختى بعد زواجها إلا بمائة جنيه فى الشـهر .. وقـد دام هذا الـزواج أطول مما دام زواج أخـتى سـنيـة .. تم

الطلاق بعد عامين لا بعد عام واحد .. أما أختى الثالثة نفيسة فشيء آخر .. إنها شخصية مختلفة عنا حتى أنها لم تقبل منذ كانت صغيرة أن تعرف باسم نفيسة وأصبحت تحمل اسم نوفا .. وقد تقدم لها مصطفى وهو شاب من خريجى كلية التجارة وذكى إلى حد أنك تستطيع أن تحس بذكائه فى كل كلمة يقولها .. وقد استطاع بسرعة أن يكتشف كل عقلية وشخصية بابا ، بل استطاع أن يتسلل إليه حتى أخذه أبى للعمل معه فى الحسابات رغم أن أبى يتردد طويلا قبل أن يختار من يعمل معه وخصوصاً فيما يخص الحسابات .. وأعتقد أن مصطفى بلغ من ذكائه أنه لا يعيش واقع اليوم ولكنه يعيش المستقبل .. بعد أن يموت أبى ويصبح مسيطراً على ما ترثه زوجته .. وأنا لا يعجبنى مصطفى لأنى لست كأختى نفيسة ..

وقلت لها مقاطعاً وقد بدأت أخمن ما تقصده :

– لماذا تحكين لى كل هذه الحكايات ..

قالت فى أسى :

– حتى تعرف أنى فتاة معقدة ..

قلت صارخاً :

– هل تريدين أن أؤكد لك أنى لا أطمع فى أموال أبيك .. ومن يدرى .. حتى لو أكدت لك فربما تقولين عنى ما قلته عن روزالين .. أنها قبلت أن تتزوج أخاك بلا مهر ودون أن يعتمد على أبيه ولكنك تؤكدين أن لابد فى عقلها مشروعات .. وربما تتصورين أن فى عقلى مشروعات أنا الآخر .. ولا يمكن أن تكونى تحبيننى فعلاً ما دمت تشكين فى أن لى أطماعاً فيك ..

قالت وهى تنظر إلىّ فى حب من خلال ابتسامتها الحلوة :

- إنى أحبك .. ولست فى شك فيك .. ولكن وحتى أكون صريحة فإن أخشى ما أخشاه إذا تزوجنا أن تعايرنى بأنك استغنيت عن أبى .. وأحس كأنك مننت علىّ بهذا الاستغناء .. إنى لا أقبل أن أحس بأنك تمن علىّ بشىء .. فالحب لا يحتمل أن يكون واحداً منا منوناً على الآخر ..

قلت كأنى أسخر من كلامها :

- إن ما لا يصدقه عقل هو أن تقولى أنك لن تتزوجى أبداً مهما كانت الأسباب .. قولى أنك لن تتزوجينى أنا ..

وتركت مقعدها وجلست على الأرض تحت أقدامى وذراعاها مستندان على ركبتى وقالت وهى تبتسم :

- إذا تزوجت فلن أتزوج إلا أنت .. ولكني أريد أن أنتظر حتى أتم بناء شخصيتى .. أنجح وأعمل وأكسب .. حتى تصبح شخصيتى منفصلة عن شخصية أبى .. حتى لا أكون مجرد ابنة عبد الغفور البرعى .. وأعيش فى غنى عنه لأكون أنا وزوجى فى غنى عنه ..

وصحت :

- وأنا لا أستطيع أن أحبك كل هذا الحب وأعيش محروماً منك كل هذا الحرمان .. إنى حتى هذا اليوم لم أقبل حبيبتى إلا هذه القبلات الخاطفة السريعة .. ليست قبلات الحب ..

وقالت وهى تسند رأسها على ركبتى :

- لن تعيش محروماً ..

وعدت أصيح :

– إنى لن أستطيع أن أنتظر حـتى تبدئى أنت قبل أن أبدأ .. لن أعيش تحت أمرك .. سـأبدأ أنا حتى لو لم تبدئى ..

ومددت يدى وقـبضت على ضـفـيرتها فى قسـوة وشددت رأسـها إلـىّ فى عنف حتى أصبح كل وجهـها ملتصقـاً بوجهى وشفتاها ملتصقتين بشفتى .. وسمعتها تهمس :

– لقد قررت أن أبدأ ..

وكل شفتيها المكتنزتين بين شفتى ..

٧

كانت معظم وأمتع الأحاديث التى تدور بينى وبين نظيرة هو الحديث عن أخيها عبد الوهاب وزوجته روزالين بعد أن أصبحا يعيشان فى غرفتين داخل بيت عائلة البرعى .. الغرفة التى كانت دائماً غرفة نوم برعى وقد تركاها كما هى لم يضيفا إليها شيئاً ولا حتى فكرت روزالين فى تغيير وضع قطع الأثاث فيها .. والغرفة الملتصقة التى كانت سابقاً غرفة نوم أخيها عبد الستار الذى هاجر إلى انجلترا وقد خصصاها كغرفة جلوس وزحماها بكل ما يعبر عن الدين الإسلامى .. أصبحت حوائطها مغطاة بلوحات تحمل آيات القرآن وصوراً لرجال الإسلام القدامى المعروفين كان من بينها صورة للشيخ حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين رغم أن عبد الوهاب لم ينضم أبدا إلى هذه الجماعة .. ربما كان عبده يتبرك ويزداد تقربا إلى إيمانه بتعليق صورة حسن البنا .. كما وضعا فى الحجرة مسندين يحمل كل منهما مصحفا كبيرا من

مـصاحف القـرآن .. مصـحف لكل منهمـا .. وفى جانب آخـر أسندا سجادتين للصلاة .. سجادة لكل منهما .. وكان يواظبان على أداء الصــلاة كاملة .. وربما كـانت روزالين أكثـر حرصـاً على مواعـيد الصلاة من عـبد الوهاب .. إنها تصلى الفـجر فى موعده .. والظـهر .. والعصر .. والمغرب .. والعـشاء .. كل فى موعده تماماً عقب الأذان به .. بل إنها بعد أن عقدا القران وجاءا إلى البيت ودخلا غـرفتيهمـا قاما أولا بالصلاة ركـعتين شكراً وابتهالا إلى الله أن يوفقهمـا .. ثم أعطى كل منهما نفسه للآخر كزوج وزوجة ..

وقلت لنظيرة وأنا فى حيرتى من شخصية عبد الوهاب :

– هل تعلمـين أن أول امـرأة يلمـسهـا أخـوك هى زوجتـه روزالين ..

وقالت نظيرة من خلال ابتـسامتها وفى عينيـها نظرة كأنها نظرة إعجاب بأخيها :

– أعرف .. لم تكن فى حـياته نساء قـبل أن يتزوج .. ولكن هل تعرف ما هو أغرب ؟

وقلت فى لهفة من خلال لهفتى على معرفة كل أخبار عبده :

– ماذا ؟

قالت ضاحكة :

– لقد كانت الزوجة عذراء ..

قلت كأنى ألومها :

– وماذا يدهشك فى ذلك ؟

قالت مبتسمة ابتسامة ساخرة :

– إنها أمـريكية .. عـاشت طفولتـها وشبـابها فى المجـتمع

الأمريكى .. وهناك لا يعتبرون العذرية كشرط من شروط الزواج .. إن العذرية هناك لا تحمل أى معنى .. ومن حق الفتاة أن تبدل عذريتها فى سن البلوغ كتبديل الأسنان فى سن الطفولة ..

وقلت كأنى أنهرها :

– إن المجتمع الأمريكى لا يدعو البنات إلى فقدان عذريتهن .. ولكنه مجتمع يترك للبنت حريتها فيما تريد .. إما أن تريد أن تكون بكراً أو تريد أن تكون امرأة .. ولكن العذرية لم تفقد معناها فى أمريكا .. معنى الطهارة .. ومعنى النظافة .. فهذه البنت لم يمسها رجل .. وأنا واثق أن الزوج الأمريكى يفرح الفرحة الكبرى عندما يكتشف أن الفتاة التى تزوجها لا تزال عذراء .. إن الفتاة فى أمريكا مثلك وخصوصاً أنك طالبة فى الجامعة الأمريكية .. لماذا تصرين على الاحتفاظ ببكارتك ولا تسمحين لى إلا بالقبلات رغم كل ما بيننا .. لأنك تريدين أن تبقى عذراء رغم أن بيننا فتيات كثيرات لم يتمسكن بعذريتهن .. وهن أحرار وأنت حرة فى الحياة بإرادتك ..

وقالت نظيرة كأنها تتحدانى :

– لا ليست الحرية .. إنى مقيدة بإيمانى بأن ليس من حق أن أفرط فى عذريتى إلا بإذن من الله .. إلا بالزواج .. وإيمانى لا يزال أقوى من حبى ..

وقلت ساخراً :

– وأنا الضحية .. لا تريدين الزواج ولا تستطيعين التفريط فى إيمانك ..

وقالت محتدة :

– وأنا أيضاً ضحية .. ضحية إيمانى .. أنا أيضاً محرومة ..

كلانا محروم من الآخر ويتعذب .. ولكنه عذاب لذيذ ..

وقلت وأنا أحس بأني أتنهد كأني أرثي نفسي :

- عذاب الرجل أقسى وأضعاف عذاب المرأة .. ولا أريد أن نتحدث عن الفرق السيكولوجي والفسيولوجي بين الرجل والمرأة .. وقولي لي .. كيف عرفت أن روزالين عذراء ؟

وقالت ضاحكة :

- أنت تعلم أني الوحيدة التي تستطيع أن تصارح أخي عبد الوهاب بكل ما يخطر على بالي كما أني الوحيدة التي يصارحها .. وقد قمت في صباح ليلة القران وأنا مصرة على أن أعرف .. هل هي عذراء .. واختليت بأخي وسألته .. وأجابني في دهشة من سؤالي :

- طبعاً .. لماذا تسألين ؟

وقلت له :

- لأنها أمريكية ..

وقال أخي في غضب وسخط :

- مهما قيل عن الأمريكان .. فأمينة شيء آخر .. إنها مسلمة ..

وكأنها لو لم تكن عذراء لما أسلمت .. وبالمناسبة .. إن أخي عبد الوهاب يغضب كلما سمع أحداً ينادي زوجته باسم روزالين .. وله حق .. ولماذا نناديها باسمها المسيحي وكأننا ننكر عليها إسلامها .. تعال نناديها باسمها الذي أسلمت به .. أمينة .. ولو أننا في البيت حيارى كيف نناديها .. أمينة أم روزالين .. كأننا لا نستطيع أن نحس بها كمسلمة ولا نستطيع أن نجاهرها بأنها أمريكية غريبة عن الإسلام .. وانتهينا إلى

أننا أصبحنا لا نناديها بأى اسم .. إننا نناديها بالصفات .. يا حبيبتى .. يا أختى .. يا عزيزتى ..

وكان عبد الوهاب وروزالين ـ آسفة .. أقصد أمينة ـ مختلين دائماً فى غرفتيهما ما داما فى البيت لا يخرجان إلى بقية أنحاء البيت إلا إذا كانا فى حاجة إلى شىء .. كأن يخرجا ليجلسا مع بقية أفراد العائلة على مائدة الغداء .. وكانت أمينة تخرج وحدها أحيانا وتدخل المطبخ لتأكل فى غير مواعيد الغداء أو العشاء .. وكانت تحمل من المطبخ ما تجده إلى غرفتيهما .. ولم يحدث أبدا أن اقترحت علىّ أى صنف من الطعام أو علقت بشىء أو اعترضت أن تقوم بإعداد لون خاص من الطعام .. بل إنها لا تشترك فى أى عمل من أعمال البيت خارج الغرفتين .. كأنها غريبة تعيش فى بنسيون .. ومنذ صباحية يوم الزواج الأول خرجت أمينة من البيت ، وركبت الموتسكل الذى تملكه واختفت حتى الساعة الخامسة بعد الظهر .. لابد أنها استأذنت زوجها .. لقد ذهبت إلى عملها .. لم تحس أن الزواج يفرض عليها أن تأخذ أجازة من العمل .. إن الأجازة لا تكون إلا للقيام بعمل آخر .. والزواج فى رأيها ليس عملا يستحق أجازة .. والغريب أن عبد الوهاب وافق .. ووافق أيضاً على أن تستمر فى ركوب الموتسكل بين الشوارع .. إنه من معدات التنقل حتى لو كانت تركبه امرأة وليس فى ذلك أى حرام ما دامت المرأة لا تكشف عن المحرمات من جسدها .. ربما كانت هى التى أقنعته بهذا الكلام .. بل إنه لم يعترض عندما قالت له إنها مرت فى طريقها لزيارة صديقتها فوزية .. ما هذه الصداقة التى تدعو عروساً إلى

زيارة صديقتها فى صباحية ليلة زفافها !!

وكانت نظيرة هي الوحيدة التى تستطيع أن تتجرأ على خلوة عبد الوهاب وأمينة وتفتح عليهما غرفتيهما .. وكان قد مر ثلاثة أيام على زواجهما عندما دخلت نظيرة إليهما فوجدتهما جالسين فى غرفة الجلوس وكل منهما ساهم مبلم متباعد عن الآخر .. وسألتهما نظيرة ضاحكة كعادتها :

– ماذا بكما .. هل انتهى شهر العسل .. أم وجدتما فى العسل مرارة ؟!

وظلا صامتين برهة إلى أن انطلقت روزالين ـ أقصد أمينة قائلة فى ثورة :

– اسمعى يا نظيرة .. إنى أعلم أنك أقرب أخوات عبده إليه .. فساعدينى على إقناعه .. إنى منذ اليوم الأول الذى التقينا فيه وأنا ألح عليه ليعمل وهو لا يريد أن يعمل ..

وقال عبد الوهاب فوراً :

– اسأليها أين تريدنى أن أعمل ..

وقالت أمينة وهى توجه كلامها إليه رداً عليه :

– إنى أريدك أن تعمل مع أبيك .. أى خطأ فى أن تعمل مع أبيك ؟

وقال عبده كأنه تجاهل وجود نظيرة بينهما ويعيد المناقشة من جديد :

– قلت لك إنى لا أريد أن أعمل مع أبى كما أنك أنت رفضت العمل مع أبيك رغم أنه يملك متجر أحذية كبيراً فى بلدكم ..

وصاحت روزالين .. آسف .. أمينة :

– إنى لم أعمل مع أبى لأنى أريد أن أدرس .. ونلت شهادة

وأصبحت متخصصة فى علاج اللثة .. أما أنت فإنك ترفض العمل مع أبيك دون أن تحدد لنفسك طريقاً يحقق مستقبلك .. إنك حتى لم تتم دراستك ولم تدخل الجامعة ولم تتخصص فى شىء ..

وقال عبده ساخراً :

- إن أبى لم يدخل الجامعة ولا أى مدرسة ولا حتى روضة الأطفال .. إن العمل مع أبى لا يحتاج لدراسة ولا لشهادات ..

وعادت أمينة تصيح :

- إنى أعرف كل شىء عن أبيك .. إنه لم يهرب من المدارس ولم يحرم نفسه من التعليم فاعتمد على نفسه وعلى ذكائه وعبقريته حتى حقق لنفسه المعجزة .. ولكنك أنت لست محروماً من التعليم ولكنك حرمت نفسك منه .. وأنا مثلك لا أعتبر أن الشهادات الدراسية هى التى تحقق مستقبل الإنسان .. وكثير من العباقرة وأصحاب الملايين عندنا فى أمريكا لم يدخلوا الجامعات ولم يحصلوا على شهادات .. وأنا لا أريدك أن تتم تعليمك ولكنى أريد أن تعمل وتحاول لعلك تحقق المعجزة التى حققها أبوك أو على الأقل تستمر فى إحياء معجزته .. فهل أنا مخطئة .. هل أتجنى عليك لأنى أريدك أن تملأ فراغ حياتك وتعمل ..

وقال عبده وهو أيضاً يصيح :

- قلت لك إنى منذ سنوات وأنا أفكر وأبحث حتى أستطيع أن أعمل بعيدا عن أبى .. وقلت لك أنى مستعد أن أسافر معك إلى أمريكا وأبدأ العمل هناك حتى لو عملت مع أبيك فى تجارة الأحذية .. بل إنى فكرت أن أحولها مع أبيك من تجارة إلى

صناعة .. وأستطيع أن أدبر رأس المال الذى يكفينا لإقامة هذا المشروع هناك ..

وقاطعته أمينة وهى تلوى شفتيها الرفيعتين فى قرف :

– لو كنت أستطيع أن أعود إلى أمريكا وأترك مصر لما تزوجت مصرياً .. لما تزوجتك ..

وقال عبد الوهاب موجهاً كلامه إلى نظيرة وكأنه كان قد نسى وجودها :

– إنها لا تستطيع أن تفهم وتقدر .. وكل ما يسيطر على مخها استغلال أبى ..

ثم عاد والتفت إلى أمينة واستطرد صائحاً :

– اسألى نظيرة .. هل ترضى أن تعمل مع أبى رغم أنها ستنتهى من دراستها وتصبح إنسانة كاملة ..

وقالت لهما نظيرة وهى تضحك :

– استمرا فى المناقشة أسبوعاً أو شهراً أو شهرين إلى أن تتفقا .. وستتفقان لأنكما زوجان .. والمناقشة تحيى وتملأ الحياة الزوجية .. وسأترككما ..

وخرجت نظيرة من الغرفة كأنها تهرب منهما ..

وسألت نظيرة بعد أن حكت لى هذه الحكاية بكل تفاصيلها :

– وماذا كان رأيك أنت ؟

وسكتت نظيرة برهة ثم قالت فى صوت مسكين :

– إن أخى عبد الوهاب على حق .. وروزالين معذورة .. إنها لا تستطيع أن تقدر العقدة التى نعانى منها تجاه أبى .. العقدة التى دفعت أخى عبد السلام للهجرة إلى انجلترا والتى تدفع

عبده إلى الهجرة هو الآخر .. لقد سبق أن حاول الهجرة ولم يفلح فى الحياة بعيداً عن أبيه ، ومن حقه أن يحاول الهجرة مرة أخرى بعد أن تزوج أمريكية .. إنها عقدة عجيبة غريبة كخيوط العنكبوت ومن الصعب على من لا يعانيها أن يفهمها .. ولكنك لا تدرى ما حدث بعد ذلك ..

وسكتت كأنها تتحسر وقلت أتعجلها فى لهفة :

– ماذا حدث ؟

وقالت نظيرة وهى متحسرة :

– لقد فوجئنا بعبد الوهاب يخرج من حجرته ويأتى ليجلس معنا وحده على مائدة العشاء .. وصحنا جميعاً مندهشين .. أين زوجتك .. ما عدا أبى فهو لم يردد معنا هذا السؤال .. إنه لا يحب أن يتدخل فى حياة ابنه ما دام لم يجد ما يمسه ..

وقال لنا عبد الوهاب دون أن ينظر إلينا :

– ستنام الليلة عند صديقتها فوزية ..

ثم استطرد ضاحكاً :

– إن كلا منا فى حاجة إلى ليلة راحة ..

ولم ينطق أحد منا بكلمة .. وأخذنا نتبادل النظرات فى صمت ربما لوجود أبى بيننا .. ولكن أبى ضحك ضحكة كبيرة وهو يقول لعبد الوهاب :

– هذا هو الفرق بينى وبينك .. لقد عشت مع أمك أربعين سنة ولم آخذ ليلة راحة واحدة .. أما أنت فقد احتجت لليلة راحة ولم يمض على زواجك أيام ..

وقال عبد الوهاب فى وجوم :

– إن أمى نعمة يمن الله بها كزوجة على من يرضى عليهم

من عباده .. ولم يتم رضا الله عنى حتى يمنحنى مثل أمى ..

وقال أبى كأنه ينهر أخى :

- إن الله يرضى عن العاملين الذين يعملون ليصلوا إلى ما كتبه لهم من رزق ..

ولم يرد عبده على أبيه إنما ابتلع لقمة من الطبق الذى أمامه ثم قام من حول المائدة دون استئذان ودخل حجرته بسرعة .. لقد كان غريباً أن يجلس معنا على مائدة العشاء فهو لم يتعود أن يتعشى معنا حتى بعد أن تزوج كانت زوجته أمينة تدخل المطبخ وتعد له ولها صينية العشاء وتعود بها إلى حجرتهما .. وقد دخلت إلى أخى عبده فى حجرته بعد العشاء وقلت له مشفقة عليه :

- أصدقنى .. لماذا ذهبت أمينة لتنام عند صديقتها ..

وقال ساهماً :

- صدقينى .. لقد أردنا أن نرتاح من مناقشاتنا .. وأمينة أوربية أمريكية فلا تنتظرى منها التقاليد التى تحكم عاداتنا وتحرم عليها المبيت بعيداً عن زوجها ..

وقد قضيت معه ساعات طويلة من الليل متعمدة دون أن أشعره بأنى أخفف عنه ..

وقلت لنظيرة وأنا متعجب حائر مما أسمعه :

- إنى لا أستطيع حتى اليوم أن أجد ما يقنعنى بأسباب زواج عبده من روزالين ..

وقالت نظيرة وهى تهز رأسها فى أسى :

- إنى أعتقد أنها مجرد تجربة قرر عبده أن يخوضها ..

وبعد يومين عدنا فى لقائنا أنا ونظيرة نتحدث كعادتنا عن

أخيها وزوجته الأمريكية ، وقالت نظيرة وهى تبتسم وتهز رأسها كأنها متعجبة من الأحوال التى تشهدها :

- لقد عادت أمينة إلى البيت فى اليوم التالى .. لم تقض مع صديقتها إلا ليلة واحدة .. وقد عادت متغيرة .. إنها تقضى كل وقتها وهى فى البيت خارج غرفتها .. وتقبل على الجلوس معنا ولا تكف عن الكلام وتشترك مع أمى فى أعمال البيت .. إلى أن عاد أبى فى المساء إلى البيت كعادته .. وكأنها تفرغت له .. جلست معه فى الصالة قبل تناول العشاء وأخذت تحدثه عما جمعته من معلومات حول تجارة الحديد الخردة وعن تصنيع الحديد .. إنها تروى معلومات قيمة فعلا .. ربما كان بعضها جديداً بالنسبة لمعلومات أبى وخبراته .. وكان يستمع إليها أحياناً بجدية .. وأحيانا يعلق ضاحكا .. إلى أن قالت له بعد الكلام الطويل :

- لقد وعدتنى أن أعمل معك ..

وضحك أبى ضحكة كبيرة وقال كأنه لا يعنى ما يقول :

- بإذن الله ..

وقالت أمينة وعيناها تبرقان :

- إنى أريد أن أعمل معك من اليوم .. لقد درست كل ما يتعلق بالعمل دراسة واسعة .. ضعنى فى أى مكان من العمل وأنا واثقة متأكدة أنى سأحقق لك الكثير وسنبنى وأنا معك مستقبلاً باهراً واسعاً ..

وسكت أبى فترة ثم قال وهو يبتسم وإن كان صوته جاداً :

- إنى لا أستطيع أن آخذك من زوجك ..

قالت فى دهشة :

- ماذا تقصد ..

وقال أبى فى هدوء :

- إن عبد الوهاب لا يريد أن يعمل معى .. فأقنعيه أولاً بالعمل وسأرحب بك معه لتكونا معاً ويكون مسئولاً عنك ..

وصاحت أمينة كأنها دهشت :

- مالى ومال عبد الوهاب .. إن لكل منا عمله .. إنه لا يعمل معى فى مكتب شركة البترول ، ولا يعمل معى وأنا أكشف على مرضى اللثة .. وأنا لا أعمل معه فيما لا أدرى ما يعمله .. إن لكل منا عمله الخاص ..

وقال أبى من خلال ابتسامته :

- إنه زوجك ..

وعادت أمينة تصيح :

- وما دخل زوجى فى هذا الموضوع .. هل تريد أن أستأذنه ..

وقال أبى وهو ينظر إليها كأنه يطلب منها أن تنهى هذا الموضوع :

- إنه ابنى .. ولا أستطيع أن تعمل معى زوجة ابنى وأنا حائر فى ابنى .. إنه وضع غريب .. واسمعى يا ابنتى .. إنى رجل عجوز .. دقة قديمة .. ولى طبيعتى الخاصة .. وما تجدينه عادياً عندكم فى أمريكا قد يكون غريباً عجيباً عندنا .. كيف تعمل معى زوجة ابنى ولا يعمل ابنى .. إنى لا أستطيع كلما رأيتك أمامى أن أتخلص من إحساسى بابنى فكيف أرتاح لك إذا رأيتك معى فى عملى ..

ورغم هذا ظلت أمينة تلح وأبى مصمم على الرفض إلى أن

قامت من أمامه غاضبة ودخلت غرفتها إلى زوجها الذى لم يحضر هذه الجلسة ولم يسمع كل هذا النقاش ولم يبد رأيه .. ولم يتناولا معنا هما الاثنان طعام العشاء ..

وتنهدت نظيرة فى أسى وقالت فى صوت حزين :

– لقد تأكدت وأنا أسمع هذا الكلام أن أخى ضحية أبى .. ويضيع فى تضحية جديدة .. ماذا تفهم من كلام روزالين أو أمينة .. إن كل ما فهمته هو أنها لم تتزوج أخى لأنها تحبه .. أو لأنها استراحت إلى تدينه وتطرفه فى الإسلام .. أو أنها أعجبت بشخصيته .. أبدا .. لقد تزوجته فقط لأنه ابن الحاج عبد الغفور البرعى .. وكانت قد جمعت كل المعلومات عن ثراء الحاج عبد الغفور فتزوجت ابنه لتستغل هذا الثراء .. وقد حاولت أولاً أن تقوم بهذا الاستغلال عن طريق ابنه الذى تزوجته .. وعندما خيب الابن أملها حاولت أن تستغل الحاج عبد الغفور مباشرة بأن تعمل معه .. إنى لم أعد أطيقها .. بل إنى لم أعد مقتنعة بأنها أسلمت من أجل الإسلام .. لعلها أرادت أن تستغل الإسلام أيضاً ..

قلت كأنى قررت أن أجادلها وأتحدى آراءها :

– ومن أدراك أن أخاك نفسه لم يتزوجها لأنه أحبها .. أو لأنها أسلمت .. أو لأنه أعجب بها .. إنها ليست مجرد امرأة جميلة تثير الإعجاب .. بل إنه لم يتزوجها لحاجته إلى امرأة .. أى امرأة .. فقد قضى عمره كله دون أن يمس امرأة .. إنه تزوجها هو الآخر لتحقيق أطماعه .. قد يكون كل ما دفعه إلى الزواج هو أن يسافر معها إلى أمريكا ويحقق مستقبله هناك بعد أن يحصل هو نفسه على الجنسية الأمريكية بحكم الزواج ..

وقالت نظيرة وهى تنظر إلىّ فى لوم :

- لا يهمنى ماذا يريد أخى .. إن ما يريده خاص به وأطماعه لا تمسنى ولا تؤثر فىّ .. ولكن أطماع زوجته تمس كل عائلتى لأنها أطماع فى استغلال أبى .. وهى أطماع حرمتنا أنا وإخوتى من أن نستطيع أن نعيش حياة عادية مثل كل الناس .. حرمتنا أن يتزوج أى واحد فينا من أجل شخصه .. إننا لا نتزوج إلا من أجل فلوس الحاج عبد الغفور ..

وقلت مشفقاً :

- هذه عقدتكم كلكم ..

قالت كأنها تهم أن تبكى :

- هذا صحيح ..

قلت وأنا أقترب منها وأحتضنها :

- لقد فكرت فى مشروع لأخلصك من هذه العقدة .. بأن أحررك من أبيك .. ونتزوج ..

قالت بلا مبالاة :

- كيف ؟

قلت وأنا أضمها إلى صدرى وأرفع رأسها وعيناى فى عينيها :

- أتزوجك بلا أبيك .. أى أتزوجك الآن دون أن نخبر بابا وتتركين البيت كأنك تهربين .. ونعيش هنا معاً .. زوجاً وزوجة .. وطبعاً سيثور بابا بعد أن يعلم وسيطردك من عائلته .. لن يمدك بأى مساعدة .. وسيقطع عنك مصروفك .. وقد يحرمك من الميراث .. وبذلك تتأكدين أنى تزوجتك لشخصك لا لأنك ابنة الحاج عبد الغفور البرعى .. فلن أنال منه

شيئاً فى حياته ولا بعد وفاته .. وستبنين كل شخصيتك الحرة بعيداً عن أبيك وتتحررين من عقدتك .. وتكونين لحبيبك .. لى..

ولم أقل هذا الكلام لمجرد إرضائها وتهدئتها فى أزمتها ولكنى كنت أتمنى فعلاً زواجها حتى لو هربنا بزواجنا عن أبيها .. لقد أصبحنا نعيش كزوجين بلا زواج .. فهى تحمل مفتاح الشقة وتذهب إليها سواء كنت أنا فيها أو لم أكن .. لقد قلبت الشقة .. غيرت كل أثاثها واهتمت أكثر بتغيير غرفة النوم حتى أنها أعادت طلاءها بلون أخضر فاتح كأنها كانت تمسح كل الماضى الذى عشته فى هذه الغرفة مع الأخريات .. وكنت أنا الذى أدفع كل النفقات .. وربما كانت تتعمد أن تتركنى أدفع تحت تأثير عقدتها بأن الناس تنظر إليها لمجرد أنها ابنة رجل غنى .. وإن كانت تدفع بجانب ما أدفعه .. تشترى أصنافاً من المأكولات أو تحفة صغيرة من التحف التى تزين بها الشقة .. أنا دائماً الذى أدفع أكثر .. وكل هذا وأمنيتى تشتد يوماً بعد يوم بأن أتزوجها .. إنى أحبها ..

وابتعدت نظيرة عن صدرى وسحبت عينيها من عينى وقالت كأنها تحدث نفسها :

- ليس مما يثبت حريتى وقدرتى على أن أستقل بشخصيتى عن أبى أن أهرب منه ونتزوج بعيدا عنه .. بالعكس .. هذا سيجعلنا أكثر استسلاماً له .. ونعيش زواجنا كأننا هاربان من القوة الأعظم التى هزمنا أمامها .. قوة أبى .. وبالعكس .. إن والدى قد يوافق على زواجنا بلا مبالاة لأن ليس من طبيعته فرض إرادته على أولاده .. ولكن ما يجعلنى أقيم شخصيتى الحرة هو أن أستقل عن أبى وأنا حرة .. أن

أعـيش ولست فى حـاجـة إليه .. وأن يـكون لى اسم ليس فى حاجة إلى اســمه .. أن أنادى باسم نظيرة عبد الغـفور البرعى فلا يتذكر أحد أبى عبـد الغفور البرعى .. ولا زلت فى حاجة إلى وقت حتى أستطيع أن أحقق الشخصية التى أريدها لنفسـى ..

وقلت فى يأس :

– لقد أصبحت أنا الآخر معقداً من أبيك ..

قالت وهـى تلتصـق بى :

– لأنك أصبحت أنا ..

وأعطتنى كل شفتيها المكتنزتين بين شفتى كأنها تسكتنى ..

●●●

ومرت أسابـيع قليلة .. أسبوعان أو ثلاثة .. وجـاءت نظيرة يوماً ووقفت أمامى تقول وكأنها تتعمد أن تكون ساخرة :

– خبر جديد .. روزالين سـافرت إلى أمريكا ..

وقلت فى دهشـة المفاجأة :

– لماذا ؟

قلت من خلال ضحكة ساخرة :

– قالت لأخى أنها تريد أن ترى أمها ..

قلت من خلال المفاجأة :

– وهل سـافر أخوك معها ؟

قالت وهـى تجرى إلى المطبخ :

– لا .. أصرت على أن تسـافر وحدها ..

٨

كانت نظيرة قد تناقشت مع أخيها عبد الوهاب مناقشة حادة كأنهما يتشاجران .. كيف يسمح لزوجته روزالين أن تسافر وحدها إلى أمريكا ولم ينقض على زواجهما أكثر من أسبوعين أو ثلاثة .. أين الزواج .. أين ما تطلبه الحياة من أن يعيش الزوج مع زوجته .. متقاربين .. ملتصقين .. إلى أن يصل كل منهما إلى أعماق الآخر .. وقد رد عليها أخوها فى فتور :

- إن من حقها أن تسافر لترى أمها .. على الأقل لتحكى لها حكاية زواجها ..

وصاحت نظيرة ثائرة :

- لماذا لم تكتف بأن تحكى لأمها فى خطاب أو برقية .. أو لماذا لم تدع أمها إلى مصر لتراها وتعيش معها دون أن تتركك وتفسد الحياة الزوجية وأنتما فى شهر العسل .. كانت تستطيع أن تدعو أمها وتقيم معكما هنا فى البيت وتخصصا

لها الحجرة التى تتخذانها حجرة جلوس .. ولم يكن أبى أو أحد في البيت سيعترض على تشريفها .. هذا إذا كنتما تريدان توفير نفقات إقامتها فى فندق ..

وقال عبد الوهاب وهو لا يزال فاتراً :

- قلت لك إن شخصية الفتاة الأجنبية أو الأمريكية تختلف عن شخصية الشرقية .. إن شخصية أمينة تختلف عن شخصيتك أنت مثلا .. وكل ما تعيشين فيه من آراء وتقاليد وأحاسيس لا تعيشه أمينة .. وأنا أعاملها بشخصيتها لا بشخصية الفتاة الشرقية وتقاليد الحياة الشرقية ..

وعادت نظيرة تصيح :

- ولماذا تركتها تسافر وحدها .. لماذا لم تسافر معها .. إنى أعلم أن من أعز أمانيك أن تسافر إلى أمريكا ..

وقال عبد الوهاب وهو يتنهد كأنه يتذكر أحلامه :

- إنها لن تغيب طويلا .. وقد وعدتنى أن نسافر معاً فى المرة القادمة ..

وتركته نظيرة وهى ساخطة ناقمة لا عليه ولكن على روزالين . لقد أصبحت تناديها باسم روزالين لا باسم أمينة ..

ولم تنقض سوى عشرة أيام أو أكثر بيومين حتى جاءت إلىّ نظيرة وقالت وهى تلهث مبهورة وإن كانت مبهورة فى غل :

- تصور ماذا حدث ..

وسكت برهة وقلت ضاحكاً :

- اعملى معروف لا تعذبينى بالتصورات ..

وقالت كأنها لم تسمع كلمتى :

– لقد عادت روزالين من أمريكا ..

ثم ألقت نظيرة بنفسها على المقعد كأنها مهدودة وبدأت تحكى الحكاية ..

لقدَ عادت روزالين إليهم فجأة دون أن ترسل برقية ليستعد زوجها لاستقبالها وانتظارها فى المطار .. عادت فى بساطة كما سافرت فى بساطة وكأنها لم تسافر إلى أقصى الدنيا .. إلى أمريكا .. كأنها ذهبت إلى خان الخليلى فى مصر وعادت .. وقد عادت دون أن يبدو عليها أى تغيير .. نفس الوجه الممصوص الساطع البياض .. والشفتين الرفيعتين كأنهما خطان على وجهها .. والعينين الضيقتين اللامعتين .. كان كل ما يبدو عليها من تغيير أن ثوبها الذى كان يتدلى حتى قدميها مغالاة فى تتبع تقاليد الإسلام قد ارتفع وإن لم يكشف عن ركبتيها .. كما أن الثوب كشف عن ذراعيها وإن لم يصل حتى كتفيها .. لاشك أنها عادت وتأثرت هناك بالمجتمع الأمريكى . وقد عادت وهى تحمل هدايا لكل أفراد العائلة وإن كانت كلها هدايا رخيصة .. جاءت لكل بنت من البنات ببلوزة فاقعة اللون .. وجاءت للأم بزجاجة عطر رغم أن الأم لا تتمسك بالعطور .. وجاءت للحاج عبد الغفور بعدة حلاقة كاملة غالية نسبياً .. ولم ير أحد ماذا جاءت به لزوجها .. ومنذ جاءت وهى تتقرب وتجامل كل أفراد العائلة وتحكى لهم حكايات عن أمريكا وعن أمها وأبيها .. ونظيرة تحس بأن هذا التقارب متعمد مفتعل .. لابد أن هناك شيئاً عادت به وتريده لنفسها .. إلى أن عاد أبوها فى المساء واستقبلته روزالين فى فرحة لعلها أيضاً فرحة مفتعلة .. ورد عليها أبوها بترحاب وحنو وابتسامة

طيـبـة حلوة .. إنه رجل طيب وإن كـانت طيـبـتـه لا تؤثر فى ذكـائه .. وجلست روزالين مـعه فى غـرفـة الجلوس كمـا هى العادة قـبل العشـاء وكل أفراد العـائلة حولها مـا عدا زوجـها عبد الوهاب الذى بقى منعزلا فى غـرفته .. وقدمت له روزالين هديتـهـا وأخذت تحكـى له هو الآخر عن أمـريكا وعن أبـيـهـا وأمها ، وقالت ضاحكة :

– لقد كانت صورتك التى عرضتها على أبى وأمى هى أكثر الصور التى أعجبوا بها .. لقد أحسا بأنك تمثل الشرق كله ..

وقال الحاج عبد الغفور ضاحكاً :

– إنى أدعوهما إلـى الشرق حتى يكونا منا ويستـشرقوا .. لقد أصبحنا نسايب .. مصر وأمريكا ..

وبعد كـلام كثيـر سكتت روزالين برهة ثم قالت فى لهـجة جادة وعيناها الضيقتان تزدادان بريقاً :

– لقد عدت من هناك بمشروع أعتقد أنه يهمك ..

وقال الحاج عبد الغفور بلا اهتمام :

– خـــيراً ..

وأدارت روزالين عينيـها بين أفراد العـائلة الجالسين معـها كأنها تتردد ، ولمـح الحاج عبد الغفور بذكائه تـرددها فقال لها مبتسماً ابتسامته الطيبة :

– هل تفضلين أن نكون منفردين بعيداً عن هذا الزحام ..

وقالت روزالين كأنها قررت :

– لا .. لا يهم .. إنى أعلم أنه مـشروع لا يهمـهم ولا يدخل فى اختصاصهم .. ولا مانع من أن يسمعوه لعل لهم رأياً فيه ..

ولكن الأم ما كادت تسمع هذا الكلام حتى قامت من الغرفة

ولحقت بها ابنتها الكبرى .. إنهما تعودتا ألا يسمعا أى كلام خاص بأعمال الحاج عبد الغفور .. أما نظيرة فقد قررت أن تبقى وتشبثت بمقعدها لأنها تريد أن تعرف .. وأختها الأخرى بقيت أيضاً لتتسلى .. وكانت روزالين تسكت قليلا كأنها تلتقط أنفاسها لتستعد لعرض مشروعها ثم استطردت قائلة :

– إنى أقدر الأسباب التى دفعتك إلى أن ترفض أن أعمل معك ما دام عبده لا يعمل معنا .. لك حق .. ولكنى من يومها وأنا أفكر فى شيء جديد أستطيع أن أقدمه لك لأنى مبهورة بنجاحك .. أقدمه لا كعاملة معك ولكن كعمل خاص بى قد أستطيع فيما بعد أن أتعاون فيه مع زوجى عبده .. وكان أول ما اكتشفته أن الحكومة المصرية تبيح للقطاع الخاص أن يستغل القروض الأجنبية ويعمل بها لحسابه الخاص .. والقروض الأجنبية تتميز بشروط سهلة لا يمكن أن تتحقق من خلال القروض العادية .. إنها توفر فترة سماح لا ترد خلالها شيئاً مما اقترضته لمدة خمس أو عشر سنوات .. كما أن فوائد هذه القروض بسيطة إلى حد لا يحسب حسابها .. وتساءلت .. لماذا لا تستغل أنت هذه القروض وتقيم بها مصنعا كبيرا رائعاً .. وبدلاً من أن تقتصر على جمع الحديد الخردة وبيعه تتطور بمشروعاتك إلى تصنيع هذا الحديد .. ولا شك أنك تعلم أن استغلال هذه القروض يجب أن يكون من داخل الدولة التى أقرضت .. أى أنك إذا أخذت من القروض الأمريكية فيجب أن تتعامل بما أخذته من داخل أمريكا .. أى أن يكون الاستيراد من أمريكا .. ولذلك سافرت إلى أمريكا .. لم أسافر لأرى والدتى كما ذكرت وإن كنت قد فرحت برؤيتها .. ولكنى سافرت

لأستكمل المشروع الذى تمكن من خيالى وأدرس مجالات الاستيراد من أمريكا .. وقد وصلت هناك إلى العجب .. إننا لا نستطيع أن نستورد الآلات فحسب .. ولكننا نستطيع أيضاً استيراد كتل من الحديد نصنعها هنا .. وقدرت أننا نستطيع أن نبدأ لو حصلنا من القروض الأجنبية ولو على عشرة ملايين دولار فقط ، وأنا واثقة أن لك من الاتصالات والنفوذ ما تستطيع أن تصل به إلى كل ما تقتنع به .. وقد أعددت كل ذلك فى دراسة مكتوبة سأضعها أمامك ..

وكان الحاج عبد الغفور يستمع إليها وهو دهش وإن كان لا يبدو عليه الاهتمام الشديد ، بينما نظيرة تستمع إليها كأنها تستمع إلى نصابة تبدأ عملية نصب .. وقال الحاج عبد الغفور من خلال ابتسامته الطيبة :

- إنك مدهشة .. رائعة .. كنت أتمنى أن تكون إحدى بناتى أو حتى أولادى فى مثل ذكائك ونشاطك ..

وقالت روزالين تتعجله متفائلة :

- ما رأيك فى المشروع ؟

وقال الحاج عبد الغفور وهو يبعد عنها عينيه :

- إنه مشروع رائع مضمون ولكنك جئت متأخرة .. فمنذ عام دخل صديقى بهنس فى مثل هذا المشروع واستطاع أن يأخذ لنفسه من القروض الأجنبية وبدأ فعلا فى إقامة أعمال جديدة وعندما سمعت بدأت أنا الآخر فى محاولة الحصول على نسبة من القروض مع شريك يفهم فى هذه العمليات .. ولم نأخذ من القروض الأمريكية ولكن من القروض اليابانية .. وقد تطلب الحصول على هذه القروض جهداً كبيراً ومتاعب

استمرت شهوراً طويلة .. ولا شك أنك تقدرين متاعب التعامل مع الحكومة والمبالغ الضخمة التى يكلفها هذا التعامل .. ورغم ذلك أقدمت بعد أن أقنعنى شريكى .. ولم نصل إلى استكمال المشروع إلا منذ شهر واحد ..

وصاحت روزالين كأنها تصرخ :

- إنى لم أعلم أنك دخلت فى مثل هذا المشروع ..

وقال الحاج عبد الغفور فى هدوء :

- إنك لم تسألينى قبل أن تبدئى فى مشروعك ..

قالت .. كأنها تبكى :

- إن زوجى عبد الوهاب لم يقل شيئاً ..

وقال الحاج عبد الغفور وهو يتنهد تنهيدة كأنه يزفر متاعبه :

- إن عبد الوهاب لا يعلم شيئاً عن أى شىء ..

وقالت فى حدة :

- أى أنك ترفض أن تأخذ منى هذا المشروع ..

وقال كأنه يواسيها :

- إنى لا أرفضه .. وأعلم أن عمولتك منه تصل إلى نسبة كبيرة تحقق لك ربحاً ضخماً .. ولكنى سبقتك إليه .. لا أستطيع أن أبدأ مشروعاً وقد بدأته فعلا ..

قالت ورأسها يسقط على صدرها :

- أى لا أمل ..

وقال أبى مشفقاً عليها :

- فكرى فى مشروع آخر وأنا مستعد للتعاون معك .. أو خذى هذا المشروع واعرضيه على أحد آخر .. وأنا معجب بك

إلى حـد أنى لا أستطيع أن أصـدق أن امرأة تسـتطيع أن تهب نفسـها وتبـذل كل هذا الجهـد فى تحقيق مـشروعـات لرجال الأعمال .. بـل إنى من دهشتى أحس أنك تظلمين نفسـك .. فقد كنت أعـتـقـد أن كل نسـاء العـالم حتـى فى أمريـكا ليس لهن ما يشغلهن ويحقق لهن السعادة إلا البيت والأولاد ..

وقالت روزالين فى سخط :

– إنك تعـيش أيامك .. إن كل نـساء الـعـالم يعـملن فى كل المجالات التى كانت قاصرة على كل الرجال ..

ثم ابتـسـمت ابتـسـامـة مسكـينة كـأنهـا تذكرت شـيـئـاً واستطردت قائلة فى صوت خفيض كأنها تحادث نفسـها :

– ما عدا صـديقتى فوزية .. إنها رغم كل مـا تعلمته ورغم كل الشهادات التى تحملها لا تحب أن تعمل ..

وقال أبى مبتسماً وهو يرفع اللبدة عن رأسه :

– ربما لأنها أعقل وأكثر واقعية من بقية النسـاء .. وأحب أن أقـول لـك كلمـة .. إن رجل الأعـمـال لا يـنـجح أبدا من أول محـاولة .. ولا الثانية .. ولا الثالـثة .. إنه قد يفشل فى عشرات المحاولات إلى أن يوفق فى مـحـاولة ويبدأ فى بناء مـجده .. أنا نفسى فـشلت فى مـحـاولات كثـيرة قبل أن يوفـقنى الله .. هل تسمعـين عن رجل الأعمال الرائع محـمود عبده مـحمود الذى وصل إلى أنه أصـبح يحكم كل مـشروعـات مـصر .. لقـد بدأ بالفشل .. فـشل فى عمليـات كثيـرة منها عمليـة كان يريد أن يشركنى فيها ..

وقامت روزالين واقفة وقالت فى انهيار :

– عن إذنك .. أسعدت مساء ..

وسارت إلى غرفتها فى خطوة مترنحة كأن إحساسها بالفشل سيهدها ، وصاحت وراءها نظيرة وصيحتها فيها رنة الشماتة :

- العشاء ..

وقالت روزالين ساخطة دون أن تنظر إليها :

- لن أتعشى ..

واختفت داخل غرفتها ، ولعلها بكت على صدر زوجها ..

●●●

وسكتت نظيرة وهى تتنهد كأنها تلتقط أنفاسها بعد أن حكت كل هذه الحكاية وأنا أسمعها غارقاً فى الدهشة والتعجب .. وقلت لها :

- لم أكن أعتقد أن هذه المرأة يمكن أن يصل بها طموحها إلى هذا الحد حتى ولو أنها أمريكية ..

وقالت نظيرة فى قرف كأنها تصحح معلوماتى :

- إنه ليس مجرد طموح .. إنه شذوذ .. إنها تعيش كل حياتها فى شذوذ .. لقد تركت عائلتها التى تتاجر فى الأحذية لتتعلم الطب .. وبعد أن تعلمت الطب تركت أمريكا كلها وجاءت إلى مصر لتعمل فى مكتب إحدى الشركات وتبيع أحذية حملتها معها من بلدها وتكشف على مرضى اللثة رغم أنها لا تستطيع أن تمارس الطب ، ثم تزوجت أخى لأنها عرفت أنه ابن رجل أعمال مليونير وقررت أن تمارس الأعمال .. امرأة غريبة شاذة .. وستبقى دائماً تعيش شذوذها .. وأنا لم أنته من حكايتها مع أخى بعد .. إنك لا تدرى ما حدث بعد ذلك ..

وتنهدت نظيرة فى أسى ثم استطردت قائلة :

– إنى فى الصباح فوجئت بأن رأيت روزالين تخرج من البيت وهى تحمل حقائبها .. وقد رأتنى ولكنها لم تقل لى كلمة واحدة ولا حتى كلمة صباح الخير .. ولم أقترب منها وجريت إلى أخى صائحة :

– أين تذهب زوجتك ..

وقال ورأسه منهار وعيناه تكادان تنطلقان بالدموع :

– ذهبت إلى فوزية ..

وقلت أتعجله ليفصح لى :

– متى تعود .. لقد خرجت وهى تحمل حقائبها ..

وقال كأنه يبكى :

– قد لا تعود ..

وصحت فى دهشة :

– لماذا لا تعود ..

وقال أخى وهو منهار :

– طلبت الطلاق ..

وصرخت :

– هل طلقتها ..

وقال وهو ساهم :

– لقد طلبت منها مهلة لأفكر ..

ثم انهار أخى راقداً على وجهه كأنه يبكى ولو أنى عندما جلست بجانبه أربت على كتفيه وجدته لا يبكى ولكنه فى حالة انهيار .. وبدأت أحس بالغيظ والغل يهرسان أعصابى .. كيف تتجرأ هذه المرأة على طلب الطلاق من أخى قبل أن يمر شهر ونصف الشهر على زواجهما .. أخذت أخى كأنها تتذوق طعمه

وعندما لم يعجبها طعمه تلقى به فى الشارع تحت أقدامها .. إن أخى يجب أن يعتز بشخصيته .. يجب أن يكون هو الذى يتحكم ويبقى عليها أو يلقيها .. كيف تكون هذه الأمريكية هى صاحبة الحق فى التحكم .. كل أمريكا بجلالة قدرها ليس لها الحق أن تتحكم فى أخى .. ولكن أخى منهار .. إنه يصدم بصدمة أخرى من صدمات الفشل .. لقد عاش الفشل طول حياته وقد يقضى عليه هذا الفشل الأخير .. لا .. لن يطلق روزالين .. وأحسست أنى لا أريد الطلاق لأنى أتخيل سعادة أخى معها ولكن لأنى لا أريد أن تفرض عليه إرادتها .. سيعود بها إلى البيت ويبقى معها شهوراً أو أكثر أو أقل ثم يكون هو الذى يفرض إرادته عليها .. هو الذى يطلقها ليست هى التى تطلقه .. ولكن .. كيف يستطيع أن يعود بها إلى البيت .. وفكرت .. وفكرت .. ثم تركت أخى وخرجت أجرى من البيت .. وبدلا من أن أذهب إلى الجامعة ذهبت إلى أبى فى مكتبه .. وفوجىء أبى بى حتى خيل إليه أن مصيبة قد وقعت لنا فإن أحداً منا لا يذهب أبداً إليه فى مكتبه .. ولكنك تعلم أنى أكثر إخوتى جرأة عليه وصراحة معه ، لذلك استطعت أن أتجرأ على الذهاب إليه فى مكتبه .. وقال أبى وقد صدمته المفاجأة :

– ماذا حدث ؟

وقلت وأنا أجلس على المقعد بجانبه قبل أن أحييه أو أستأذنه وأبتسم له ابتسامة تخفف عنه وقع المفاجأة :

– لا شىء .. ولكنها ليست مجرد زيارة ..

قال وقد بدأ يستريح :

– خيراً .. ماذا وراءك ؟

قلت وأنا أقرب وجهى منه وأنظر إليه فى استجداء :

- أخى عبد الوهاب فى أزمة .. ويجب أن ننقذه ..

قال وقد ازداد اطمئناناً وارتاح أكثر كأن أى موضوع لعبد الوهاب لا يهمه :

- إنه فى أزمة مستمرة .. ما هى آخر أزماته ؟

قلت كأنى أنعى عزيزاً :

- إن زوجته تطلب الطلاق وهو لا يحتمل الطلاق ..

قال فى حدة :

- ليطلقها أو لا يطلقها هذا لا دخل لى فيه ..

قلت بلهجة الاستجداء :

- حضرتك تعلم لماذا تريد زوجته الطلاق .. لأن حضرتك لم تعطها فصه للعمل معك .. وأنا واثقة أنها لو عملت فى مكتبك كسكرتيرة أو مترجمة أو مستشارة فستعدل عن طلب الطلاق . فما رأيك يا بابا لو وضعتها عندك فى أى وظيفة ..

وصاح بابا :

- مستحيل .. إن شكلها لا يريحنى ولا يطمئننى على أن أعهد إليها بأى عمل ..

وقلت وأنا أتظاهر بأنى أكاد أبكى :

- لقد رأيت عبد الوهاب بعد أن تركته زوجته .. إنه منهار انهياراً كاملاً .. لقد صدم بالفشل .. وحضرتك تعلم أنه كان دائماً فاشلاً .. وأخشى أن يقضى عليه هذا الفشل الجديد .. ثم إنى متأكدة أن هذا الزواج لن يستمر ولكننا لو عينا روزالين فى وظيفة فإننا نمد فى أجله فترة ثم يقع الطلاق بعد أن يكون عبد الوهاب أقوى على احتماله ..

واعتدل أبى فى جلسته وقال وكأنه يلقى علىّ محاضرة :

-- يا ابنتى .. ما هو الزواج .. هو أن يستطيع رجل وامرأة أن يعطى كل منهما ما يريده الآخر .. لقد تزوجت أنا وأنا أريد من أمك أن تفتح لى بيتاً وأن تعد لى الطعام وأن تنجب لى الأطفال ، وكانت هى لا تريد إلا الستر والأمان والبيت والأمومة .. لهذا وفقنا فى الزواج واحتملتنى كثيراً واحتملتها .. أما عبد الوهاب وزوجته فلم يستطع كل منهما أن يحقق ما يريده الآخر .. لقد أخطأ منذ البداية فى فهم وتقدير كل منهما للآخر .. إن هذه الأمريكية تزوجته لأنها اعتقدت أنها تستطيع أن تستغل أباه .. تستغلنى .. وهو تزوجها لأنه يريد أن يكون كأخيه عبد السلام .. يتزوج أمريكية كما تزوج أخوه إنجليزية لعله يصل إلى تكوين نفسه ولكن الأمريكية لم تفتح له الأمل .. إنى خمنت هذا منذ اليوم الأول الذى سمعت فيه بهذا الزواج ولهذا يجب أن ينتهى هذا الزواج .. أن يقع الطلاق واليوم أفضل من الغد ..

وقلت له فى توسل :

– يا بابا افهمنى .. أنا لا أريد أن يستمر هذا الزواج ولكنى أريد أن يكون عبد الوهاب هو الذى يطلق وليست هى التى تطلقه .. هذا أشرف له وأشرف للعائلة .. وسمعة أخى من سمعة العائلة .. ستعود إليه الآن بعد أن تفرح بالعمل معك وأنا واثقة أنه بعد شهور وربما أسابيع سيطلقها عبد الوهاب .. هو الذى يطلقها .. وأنا أضمن لك هذا .. وبعد الطلاق ستطردها أنت طبعاً من العمل ..

وصاح أبى :

– لا يمكن .. مستحيل .. هـذا كلام نسوان ولعب عيال وأنا لا يمكـن أن ألوث نفـسى بمثل هـذه التـحـايلات .. وطلاق عـبد الوهاب اليـوم لا يمس العائـلة .. ما دخل العـائلة فى كل هذا.. إنى أريد أن يتـحمل عـبـد الوهاب نتائج المحـاولات التى يجـريهـا حتى لو فـشلت كل تجـاربه .. وهذه تجـربة فـشلت فلنتـركـه يبـحث عن تجـربة أخـرى .. هذا ما أتبـعـه نحـوكم جـميـعاً .. ولا أريد مـن أحد من العـائلة أن يثـير أمـامى هذا الموضـوع .. اتركـوه وحـده .. وهو وحـظه ولا أقـول هو وشطارته لأن نصيبى كان ابنـاً ليس شاطراً .. ومع السلامة .. أريد أن أتفرغ للعمل ..

وقالت نظيرة وهى تبدو وكأنها منهارة :

– وخرجت من عند أبى يائسة .. مغتاظة .. إنى لن أستطيع أسترد شرف أخى الذى حطمته هذه الأمريكية ..

ثم ألقت نظيـرة رأسهـا بين ذراعـيهـا وبكت .. بكت فعـلا بدموع متشنجة ..

والواقع أنى أنا الآخر أصبحت مـغتاظاً من هذه المرأة .. لماذا تطلب هذه الأمـريكية الطـلاق ما دام زوجـها سـاكتـاً على كل ما تفعله لـتحقيق طموحـها .. ساكتـاً على شذوذها .. وقررت بينى وبين نفسى أن أذهب لملاقاة صديقتـها فوزية .. صديقتى فوزية ..

واستقبلتنى فوزية بابتسامة خبيثة قائلة :

– أين أنت .. إنى أعرف من أخذك منا ..

وقلت ضاحكاً :

– من ؟

وفوجئت بها تقول ساخرة وبصراحة :

– نظيرة ..

وبلعت ريقى الذى اهتز داخل حلقى من المفاجأة وقلت :

– من دراك .. كيف عرفت ؟

قالت ضاحكة :

– إنى أعرف كل شىء خصوصاً ما يخص أصدقائى ..

وقلت وهى تجلسنى على المقعد وقد قررت أن أكون صريحاً معها :

– على كل حال لا يهمنى أن أحتفظ بنظيرة سراً لنفسى .. والواقع أنى جئت إليك لموضوع يهم نظيرة .. لماذا تريد صديقتك أمينة الطلاق من عبد الوهاب ..

واستعملت اسم أمينة لمراضاة فوزية ..

واختفت ابتسامة فوزية واعتدلت فى جلستها قائلة :

– هذا ما يجب أن يتم ..

وقلت وأنا أغالى فى ادعاء الدهشة :

– لماذا .. لقد كان يطاوعها فى كل ما تريده .. كان يتركها لعملها .. ويتركها تبيت معك .. وتركها تسافر وحدها .. فماذا تريد أكثر من ذلك حتى تطلب الطلاق ..

وقالت فى لهجة جادة كأنها هى المسئولة :

– لقد جاءت أمينة إلى مصر وقررت أن تقيم فيها لأنها أحست فيها بالأمان .. والمرأة عندما تتزوج وهى تريد الأمان فإنها تبحث عن رجل قوى مكافح يجاهد حتى يضمن لها أنه يستطيع أن يصونها ويؤمنها على حياتها ومستقبلها .. لقد اعتقدت أمينة أن عبد الوهاب رجل قوى .. هكذا خيل إليها ربما

لتدينه .. ولكنها بعد أن بدأت تعيش معه اكتشفت أنه رجل عاجز عاطل يعيش أوهامه ولا يعيش الحياة .. وقد حاولت أن تقنعه بأن يعمل مع أبيه .. ولكنه لم يقتنع .. وحاولت هى أن تعمل مع أبيه لعله يلحق بها فلم تستطع .. وحاولت أكثر من ذلك .. حاولت أن تكون وسيطه لأبيه فى تحقيق مشروع ضخم ففشلت .. ووجدت نفسها ستعيش العمر كله مع هذا العاطل العاجز .. تعيش خائفة لا تستطيع الاطمئنان على حياتها ولا على أمنها ولا على متطلبات معيشتها .. فقررت أن تهرب من هذا الجو المخيف .. وأن تطلب الطلاق .. ولها حق .. إن السعادة الزوجية لا تتحقق للمرأة إلا مع زوج قوى مكافح عامل يحفر الصخور ليفتح أبواب المستقبل الزاهر ..

كانت تتكلم بحماس كأنها هى التى حرضتها على الطلاق ..

وقلت كأنى رافض كلامها :

- إن روزالين تعلم أن عبد الوهاب فى خلاف مع أبيه .. وقد قال لها إنه مستعد أن يسافر معها إلى أمريكا ويعمل هناك ويقيم مشروعاً ضخماً وأنه يستطيع أن يأخذ معه إلى هناك رأس المال الكافى .. فلماذا لا تستجيب لمشروعات زوجها وطباعه وأحلامه ..

وقالت فوزية فى حدة كأنها تشتم عبد الوهاب :

- إنه يعلم أن أمينة لا تريد أن تعود إلى أمريكا بل لم تعد تستطيع .. وقد سبق أن تقدم إليها خطاب كانت تعلم أن كلا منهم يريد أن يسافر معها إلى أمريكا ويحصل على الجنسية الأمريكية هناك بحكم الزواج من أمريكية .. فكانت ترفضهم فوراً .. ولكن خدعها عبد الوهاب ولم يقل لها شيئاً قبل

الزواج .. إن من طبيعته الصمت الطويل ، وكانت تعتقد أن صمته هو دليل عبقريته إلى أن خاب أملها فيه ..

وقلت كأنى أتحداها وأرد على اتهامها لعبد الوهاب باتهام روزالين :

– لقد قيل إنها تزوجته لأنها كانت طامعة فى أموال أبيه الحاج عبد الغفور ..

وصاحت فوزية :

– إنه ليس طمعاً ولكنها حاولت أن تعيش بالحق الذى يكفله لها الواقع .. إن أموال عبد الغفور هى أموال ابنه عبد الوهاب وبالتالى أموال زوجة ابنه .. ومن حق ابنه وحق زوجته أن يتدخلا فى كل هذه الأموال ويفهما كل قرش فيها حتى يستطيعا الاستمرار من بعده .. إن هذه الأموال والمصانع والشركات ستكون لهما ولأولادهما من بعد وفاة الحاج .. فكيف لا يعيشان ويعملان فيها حتى يضمنا المستقبل ، وحتى يخلد اسم عبد الغفور بعد موته واسم شركاته ومصانعه بل واسم أمواله .. هذا ليس طمعاً ولكنها مسئولية .. مسئولية الوراثة .. ولكنها لم تستطع أن تحس بهذه المسئولية .. زوجها لا يعمل وهى لا تستطيع أن تعمل ..

كانت تتكلم بحماس صارخ عن روزالين دفاعاً عنها ..

وقلت وأنا فى يأس :

– هل هناك أمل فى أن تعود إليه ..

وقالت فى حدة كأنها هى التى اتخذت القرار :

– لا .. لن تعود وأنا لا أتمنى لها أن تعود ..

وسمعت المفتاح يدور فى قفل باب الدخول ودخلت روزالين .. ونظرت إلها كأنى أنظر إلى إنسانة أخرى .. ليست

الإنسانة الغريبة الشاذة إنما أراها إنسانة قاسية تحقق طموحها بقسوتها .. وقلت لها بعد أن صافحتها باللغة الإنجليزية كأنى لا أريد أن أسمعها وهى تتكلم بلهجتها العربية المكسرة :

- هل أستطيع أن أتحدث إليك ؟

وقالت وهى تصافحنى ببرود وبالإنجليزية أيضاً :

- إذا كنت ستحدثنى عن الطلاق الذى أريده من عبد الوهاب فلا داع ..

قلت وأنا أتعمد أن أنظر إليها فى احتقار :

- فعلا .. إنى أريد أن أحدثك عن هذا الطلاق الذى تريدينه..

وقالت بعصبية :

- إذن .. لا داع ..

وتركتنى دون أن تودعنى بكلمة وجرت إلى داخل البيت وفوزية تنظر إلىّ كأنها شامتة فى خيبة أملى ..

وخرجت وأنا مقتنع بأن عبد الوهاب يجب أن يطلق فعلا دون البحث عن الأسباب .. لأن هذه المرأة لا تستحق الزواج .. والسؤال القديم عاد يتردد فى رأسى .. ترى ما الذى يجمع بين روزالين وفوزية ويربط الواحدة بالأخرى كل هذا الرباط.. إن كلاماً كثيراً يتردد حول علاقتهما .. امرأتان فى حالة حب إحداهما بالأخرى .. ورغم ذلك فإنى لا أستطيع أن أصدق ..

وقد نقلت كل ما جرى من كلام بينى وبين فوزية إلى نظيرة .. وقالت نظيرة فى غل وغيظ بعد أن بقيت صامتة طويلاً :

- لك حق .. سأحرض أخى على توقيع الطلاق .. إن هذا الزواج يعيبه ويعيب العائلة أكثر مما يعيبنا الطلاق حتى لو كان بناء على طلبها ..

وتم الطلاق ..

٩

أصبحت نظيرة منذ تم طلاق أخيها من زوجته الأمريكية وهى فى حالة شاذة .. إنها تبدو فى حالة عصبية عنيفة دائمة .. وهى تجلس معى ساهمة أحياناً .. وأحياناً تتكلم كلاماً غريباً كأنها ثاثرة علىّ .. كأنها أصبحت تخافنى أو تتشك فى .. أو كأنها أصبحت تعتبر نفسها ضحية لى .. كأنها تحس أنها أصبحت تعطينى دون أن أستحق العطاء .. دون أن يحقق عطاؤها أى مستقبل لها .. بل إنها تغيرت حتى فى تصرفاتها .. فيأتى يوم لا تعد لى طعام الغداء كما عودتنى ثم فى يوم آخر تعده وكأنها عادت كما كانت .. وأحياناً كنت أطلب منها ونحن جالسان إلى المكتب .. هى تذاكر وأنا أعمل فى مشروعاتى .. أطلب منها أن تعد لى فنجان قهوة كما عودتنى .. فترد بسرعة :

– آسفه يا حسين .. أعد قهوتك لنفسك .. إنى تعبانة ..

وأقوم صاغراً لأعد القهوة لنفسى .. وحتى قبلاتها .. إنها أحياناً تقبلنى قبلة بكل إحساسها وكل حلاوتها .. وأحيانا

تعطينى شفـتيهـا دون أن تقبلنى .. وحتى وهى تذاكـر .. إنها لا تلقى نفسها بين الكتب فى حمـاس ومرح كما كانت دائماً .. إنى ألاحظ أنها تفتح الكتب وتسرح بعيدا عنها .. وكانت أحيانا تغلق الكتـاب وتعتـذر لى بأنها تريد أن ترى والدتهـا ثم تغلق الكتاب وتخـرج والساعة لم تصل إلى الخـامسة بعـد أن كانت لا تتركنى قبل الثامنة .. وقد قلت لها مرة :

– ماذا بك .. إنك لست طبيعية ..

وقالت فى صوت ضعيف :

– ليس بى شىء ..

وقلت مشفقاً عليها :

– إنك متغيرة وكأنك تعانين شيئاً تخفينه علىّ ..

وقالت فى حدة وهى تنظر إلىّ ثائرة :

– لا .. أبداً .. إنى على طبيعتى فإمـا أن تتحمل هذه الطبيعة أو لا تتحملها ..

وسكت وأنا متأكـد أنها ليست فى حالة طبيـعية .. ولم أكن دائماً أسكت .. كنت أحياناً أجادلها فى عنف يصل إلى حد كأننا نتـشاجـر إلى أن كـان يوم واتصلت بى نظيـرة فى التليفـون وقالت لى إنهـا لن تستطيع أن تأتى إلى الشـقة لأنها مـريضة بالانفلونزا ..

ولم أصـدقهـا .. لا شك أنها تدعى المرض لأنهـا لا تريد أن ترانى واحترت مـاذا أفعل .. ولم أفعل شيـئاً .. وكانت كل يوم تتصل بى بالتليفون ومهما ألحـحت عليها فهى مصرة على أنها مريضـة .. ومر أكـثر من أسـبوع وهى مصـرة على أن تكون مريضة ..

وعدت أتردد على نادى الجزيرة كل يوم بعد الظهر وبعد أن تحادثنى نظيرة فى التليفون ، وفوجئت فى أحد الأيام بصديقى طبيب الأسنان الدكتور عطا الله ومعه روزالين .. ودهشت .. ووقفت مذهولاً .. ما الذى جمع الدكتور عطا الله بروزالين .. ولم تكن روزالين ترتدى الثوب الإسلامى الذى ينسدل حتى يغطى قدميها ولا يكشف عن ذراعيها .. إنه الثوب الذى عادت به بعد سفرها إلى أمريكا والذى يرتفع إلى تحت ركبتها ويكشف عن ذراعيها وإن كان يغطى كتفيها .. إنها لم تعد إلى التطرف فى المظاهر الإسلامية ..

ونادانى الدكتور عطا الله وبعد أن تصافحنا قدمنى إلى روزالين فى زهو كأنه يتفاخر :

– الدكتورة أمينة ..

ثم قال بعد أن رآنى أبحلق فيها وأنا أصافحها :

– إنها دكتورة أمريكية مسلمة ..

وقلت وأنا أبتسم له ولها ابتسامة مفتعلة :

– لقد سبق أن التقينا وتعارفنا ..

وقال الدكتور عطا الله كأنه تذكر شيئاً حرمه من لذة المفاخرة ومفاجأتى بصديقته الأمريكية :

– صحيح .. لقد كانت زوجة لصديقك عبد الوهاب عبد الغفور ..

ثم استطرد مبتسماً ابتسامة ساخرة :

– ابن الحاج عبد الغفور البرعى مليونير وكالة البلح ..

وتوقف كأنه يتمتع بسخريته ثم استطرد قائلا :

– لقد حكت لى الدكتورة أمينة كل حياتها .. ولا شك أنك

تعلم أنها دكتورة متخصصة فى علاج اللثة .. وهى تعمل الآن معى فى عيادتى ..

وقلت هامساً فى دهشة :

– هل حصلت على إذن بممارسة الطب فى مصر ..

وقال الدكتور عطا الله وهو ينظر إلىّ كأنه يلومنى على هذا السؤال :

– إن من حقى أن أختار المساعدين فى العيادة .. وهى تساعدنى .. وقد استطاعت فى أيام قلائل أن تكسب ثقة كل مرضاى من المترددين .. بل أصبح هناك زبائن لا يأتون إلى العيادة إلا لها ..

ولم يطل الحديث بيننا الذى لم تشترك فيه روزالين ولا بكلمة واحدة .. هذه هى كما عرفتها .. لا تتكلم أبداً إلا إذا كانت وراء مشروع يتطلب منها الكلام .. وقد تركتهما منصرفاً وأنا فى دهشة من هذه السيدة .. إنها لا تكف عن المحاولة حتى لو فشلت .. وكانت آخر محاولة لها أن تكون سيدة أعمال عن طريق استغلال عبد الوهاب وأبيه الحاج عبد الغفور .. وفشلت .. وهى الآن تحاول أن تحترف ممارسة الطب عن طريق صديقها الجديد الدكتور عطا الله .. ومن يدرى .. لعلها تتزوجه هو الآخر .. وقد كان عبد الوهاب صادقاً فى حكمه على الفتاة الأوربية والأمريكية .. إنها لا تكف أبداً عن محاولة استكمال شخصيتها والاعتماد على نفسها واستغلال ذكائها .. ولا شك أن نظيرة ستدهش عندما تسمع هذه الأخبار الجديدة ..

ولكن نظيرة لم تحادثنى فى التليفون ..

مر يوم .. ويومان .. وثلاثة .. وأربعة .. وهى لا تتحدث .. وأنا أكاد أجن .. وقد حاولت أن أتصل بها أنا فى التليفون فلم أستطع .. إنى كلما اتصلت بها فى تليفون البيت يقولون لى أنها ليست موجودة وكنت أتعمد أن أقول اسمى لمن يرد من أفراد العائلة كأنى أتعمد أن أصارح بعلاقتنا وأفضحها .. وكنت أذهب كل يوم وأقف أمام باب الجامعة الأمريكية لعلى أراها خارجة .. ولكنى لم أرها أبداً .. والجنون يكاد يعصف بى .. كيف تتصرف مع هذا التصرف .. حتى لو كانت قد قررت أن تنهى علاقتنا فكان يجب أن تقول لى وأنا نتفق معاً لا أن تطردنى كالكلب الذى ضاقت به .. وكنت أقضى كل أوقات فراغى .. كل النهار وكل الليل .. وأنا أطوف فى الشوارع وحول العمارة التى تقيم فيها كأنى أبحث عنها .. إنى أبحث عنها فعلا ..

وفى صباح اليوم الخامس فوجئت بنظيرة تتصل بى بالتليفون وتقول فى صوت سريع كأنه لم يحدث بيننا ما يستحق الكلام :

– حسين .. سأكون هناك اليوم .. فى بيتنا .. مع السلامة وإلى اللقاء ..

وألقت سماعة التليفون فى وجهى دون أن تنتظر ردى عليها .. وتركتنى ساعات وأنا أعانى غيظى وتوتر أعصابى .. وكنت فى الشقة قبل أن تأتى بساعات إلى أن سمعت قفل الباب يتحرك ..

ودخلت .. يبدو عليها أنها متوترة الأعصاب .. وقبّلتنى قبلة سريعة على خدى ثم ألقت نفسها على المقعد .. وقلت لها وأنا واقف فى مواجهتها وعيناى تنطقان بالغيظ :

- أين كنت ؟
ونظرت نظيرة إلىّ وهى تبتسم ابتسامة مسكينة وقالت فى رجاء :
- حسين .. اجلس وأهدأ ..
وجلست وأنا أحاول أن أبتسم لها ابتسامة ساخرة كأنى أتعمد أن أشعرها بأنى لا أبالى وقلت :
- جلست .. ماذا ستقولين ..
وسكتت برهة وهى تتنهد كأنها تزفر آلامها ثم قالت فى صوت خفيض :
- حسين .. سأتزوج ..
وصحت فى فزع :
- تتزوجين من ؟
وقالت وهى تبتسم ابتسامة ضعيفة وتنظر إلىّ ثم تعود وتبعد نظراتها عنى :
- أنت طبعاً ..
واسترحت بمجرد أن قالت هذه الكلمة وتنهدت كأنى أطلق أنفاسى حمداً لله ، ثم عدت أقول فى دهشة :
- لماذا .. لقد كنت ترفضين الزواج ..
قالت فى هدوء دون أن تنظر إلىّ :
- لأنى قررت الزواج .. سنتزوج حتى قبل أن أنتهى من الجامعة ..
وقلت وأنا أستعيد كل غرورى وثقتى بنفسى :
- ما الذى دفعك إلى هذا القرار .. رغم أنى ألح عليك منذ شهور .. وبعد أن ابتعدت عنى كل هذه الأيام وادعيت المرض .. ثم انقطعت حتى عن محادثتى فى التليفون ..

وألقت رأسها بين كفيهـا برهة ثم رفعته وقالت وهى تتكلم بصوت خفيض هادىء وتنظر إلىّ بكل عينيها :

- حسين .. أنت تعرف عقدتى .. العقدة التى أعـانيها طول حـياتي .. العـقـدة التى بذرت فى نفـسيـتى لأنى ابنة الحـاج عبـد الغفـور المليونير .. ثم كـان طلاق أخى من روزالين .. إن الطلاق وقع كأثر للعقدة التى نعانـيها كلنا .. العقدة التى تحطم كل زيجاتنا حتى لو كان أخى قد تزوج من أمريكية .. وحطمنى طلاق أخى .. اشتد ضغط عقدتى على نفسيتى حتى نقلتنى إلى هاوية اليأس .. لن أتزوج أبدا .. أختى الكبيرة تزوجت وفشلت فى زواجـها بسـبب العقـدة التى بذرها أبى .. وأخـتى الثانيـة طلقت وتعذبت لنفس السبب .. وأختى الثالثة نفيسة تنازلت عن كل شخصيتـها هى وزوجها وعاشا زواجهمـا عبدين خادمين لأبى .. وأخى الأكبر هاجر إلى انجلترا هرباً من عقدته النفسية وربما لا تعلم زوجـته هناك أى شىء عن أبيـه .. وها هو أخى الأصغر اضطر أن يطلق وهو يتـعذب رغم أنه تزوج أمريكية .. وربما اخـتارها أمـريكيـة ظناً منه أن عـقـدة أبى لن تؤثر على زواجه بها كما لو تزوج مـصرية .. وأنا .. ما الذى يميزنى عن إخوتى .. وأنت مـا الذى يميزك عن بقيـة الأزواج .. وأحسست كأن صراخـاً حاداً ينطلق فى صـدرى .. لا .. لن أتزوج أبدا .. لو أنهيت دراسـتى وكونت شخـصية خـاصة بى فلن أتخلص أبدا من شخصيـة أبى .. لن أتخلص من العقدة .. وإذا تزوجت فـسأتعـذب وأطلق حتى لو تـزوجتك أنت .. ولكنى كنت أعـود ويهدأ الصراخ فى صدرى وأحس كأنى إذا اسـتسلمت لعقدتى ولم أتزوج فكأنى أضـحى بنفسى وأحـرم نفسى مـن طبيـعة

الحياة لمجرد خوفى من أوهام .. ثم كيف أعيش إذا لم أتزوج .. هل أعيش عشيقة لك .. لا .. إنى لا أرضى أن أعيش محرومة .. بل كانت تمر علىّ لحظات أجد نفسى مقتنعة بالكلام الذى قالته لك صديقتك فوزية .. لماذا لا نعيش أنا وزوجى فى ثراء أبى حتى لو كان بخيلا كما يقولون عنه .. إن كل ما يملكه من حقى ومن أملاكى .. بل إن ثراء أبى يضفى على أولاده وعلىّ أنا نوعاً من الجمال .. لولا هذا الثراء لما كنت أعيش هذه الحياة التى أعيشها والتى تجعلنى أجمل من كل البنات .. ولأعتز وأفخر وأتباهى بأنى ابنة عبد الغفور البرعى التى يجرى وراءها كل الشبان حتى لو كانوا طامعين فى ثراء أبيها .. ولأقدم على التجربة دون خوف .. لأتزوج .. حتى لو فشلت فإن الفشل أرحم من الهرب .. والاستسلام أرحم من الحرمان .. كان كل هذا يدور فى خاطرى ثم لا يلبث الصراخ أن يعود ويرتفع فى صدرى .. لا .. لن أتزوج .. وقد قضيت هذه الأيام وأنا معذبة بحيرتى بين عقدتى ووحدتى .. ولعلك لاحظت أنى كنت آتى إليك وأنا فى حالة عصبية تشتد ساعة وتخف ساعة .. إلى أن وجدت نفسى أحاول أن أبتعد عنك فادعيت المرض ثم هربت منك وتعمدت ألا أحادثك فى التليفون ولا أترك لك وسيلة للوصول إلىّ .. وكنت أتعذب واشتد عذابى إلى أن هدأ .. كأنه بركان أطلق حممه ثم استراح منها .. ووجدت نفسى أتخذ قراراً نهائياً كاملاً هادئاً بأن نتزوج ..

وقلت كأنى ألومها :

– كنت أعتقد أن الحب هو الذى يدفعك إلى الزواج وليس الهرب من عقدتك ..

وقالت وهى تميل نحوى وعيناها تقطران الحب :

- إن الحب هو الذى انتصر على عقدتى .. لولا حبك لما تعذبت كل هذا العذاب بأعاصير نفسيتى ..

وسكت ساهماً .. ووجدت نفسى أفكر فى الزواج كأنى متردد وكأنى لم أكن أتمنى هذا الزواج ولم يسبق أن ألححت عليها أن تتزوجنى .. وبسرعة تخلصت من هذا التردد .. إنى أحبها .. وأحبها كزوجة ..

وأمسكت بيدها بين يدى وقلت وأنا أحس بكل كلمة تصدر من كل قلبى :

- نظيرة .. إن كل ما كنت أقوله لك عن أبيك هو واقع أعيش فيه أنا أيضاً وأصابنى بعقدة نفسية .. إنى لا أحب أن يقول الناس أنى تزوجتك طمعاً فى ثراء أبيك .. ولا أسمح بأن يشعر هو نفسه بأنى أتزوجك بتأثير شخصيته وثرائه .. ولذلك عرضت عليك أن نتزوج دون أن نقول له أو نستأذنه وننتظر موافقته وبعد أن يعلم بزواجنا فليتصرف كما يريد حتى لو طردك وحرمك من الميراث .. وأنا ما زلت مصراً على ذلك ..

وقالت نظيرة وهى تبتسم وأصابعها تقفز فوق أصابعى وتضغط عليها :

- لا .. يجب أن نكون أقوى من أبى ونواجهه بحقيقتنا وسنتزوج سواء وافق أو لم يوافق ، وإن كنت واثقة من أنه سيوافق على زواجنا ..

قلت :

- وما أدراك ..

قالت وابتسامتها تتسع :

– هذه هى طبيعـتـه .. إنه يترك كل بناته وأولاده يخطو كل منهم فى حيـاته الخطوات التى يريدها .. يترك كـلاً منهم حراً ما دام ليس فى حـريته مـا يمسـه أو يمس العـائلة .. إنه يؤمن بأن الحياة تجارب فليجـرب كل منهم حياته .. وهو سيعلم أنى أريد أن أتزوجك وإن كنت لا أعتبـر زواجنا مجرد تجربة .. أبداً لا أنا ولا أنت يجرب كل منا زواجه بالآخر ..

وعـدت أحس بالتـردد ولكن نظيـرة أقـوى علىّ من ترددى وقلت بعد برهة صمت :

– إذا كـان أبوك يجب أن يعلم فلـيعلـم أن زواجنا لن يكون عادياً كـزواج بقيـة الناس .. إنى مثـلا لن أدفع له مهـراً فإنى لا أحب أن أحس بأنـى كـأنى أضـع نـقـودى فى بنـك وأنتظر الأرباح من أموال أبيك .. ونظـير ذلك لن أقبل منه أن يشـترى لنا أى شىء لتجهيز بيتنا كما هى العادة ..

وصاحت نظيرة فى فرح :

– موافقة ..

وقلت فى صوت جاد كأنى أفرض إرادتى :

– وليعلم بابا أنى حـتى لن أشترى شبكة ليـقدر بها قـيمة ثروتى ولتتـباهى بهـا ماما وإخـوتك أمام صديـقاتهن .. وأنت تعلميـن أنى لست بخيلا .. وتسـتطيعـين أن تعتـبرى أى هدية سـبق أن أهديتهـا لك كأنهـا الشـبكة .. إنى أريد أن أحس بأن زواجنا ليس مناسبـة لتقديم هدية ولكنه استـمرار لحبنا الذى نعيش فـيه .. وكل ما معى سـيكون معك نخصصـه لمشروعنا الجديد وأنا واثق أنك لن تسـتغلى ما نملكه خـارج المشروع إلا وأنت مطمئنة على المشروع نفسـه .. إنه المشروع الذى كان لك

أنت الفضل فى أن أفكر فيه ..

وقفزت نظيرة تقبلنى قبلة سريعة وهى تقول :

- موافقة ..

وقلت وأنا أكثر غروراً بنفسى :

- ولن أبحث عن شقة لنقيم فيها بعد زواجنا .. ولن أقبل من أبيك أن يخصص لنا شقة فى إحدى عماراته أو يشترى أو يستأجر لنا شقة .. سنقيم فى هذه الشقة .. صحيح أنها قديمة وفى شارع مزدحم وفى وسط البلد .. إنه ليس شارعاً إنه حارة .. ولكنها الشقة التى التقينا فيها ونما حبنا بين جدرانها .. ونحن نعيش الحب حتى بعد الزواج .. ولا تنس أن ليس لدينا فى هذه الشقة إلا غرفة نوم واحدة ومعنى هذا أننا يجب أن نحرم أنفسنا من الأولاد حتى نستطيع بعد أن ننجح أن نجد بنجاحنا شقة أخرى ..

وهللت نظيرة :

- موافقة .. إنى لا أريد أن يكون لى أولاد إلا بعد أن أنتهى من الجامعة .. إنك موافق على استمرارى فى دراستى ..

قلت وأنا فرح بها :

- طبعاً .. مشروعاتنا فى حاجة إلى أن تنمى دراستك .. وأنا لست فى حاجة الآن إلى أن أكون أباً حتى أحتفظ بشبابى ..

وقالت وهى تقبلنى هذه القبلة السريعة :

- إنه شباب دائم ما دمنا معاً .. شبابك وشبابى ..

وشددتها إلىّ واستعدتها إلى صدرى وقبلتها قبلة تكاد لا تنتهى إلى أن شدت شفتيها المكتنزتين اللتين أحبهما من بين

شفتىّ .. وقالت وهى تلقى نفسها على مقعدها :

-متى ستقابل بابا ؟

وصمت فى حدة كأنى غضبت :

- لن أقابله .. لا أريد أن أحس أمامه بأنى شحاذ جاء يشحذ منه ابنته .. ماذا أقول له .. هل أقول إنى أريد أن أتزوج ابنته دون أن أدفع ولا مليم ولا حتى أن نقيم حفل زفاف لأن الحب هو زفاف خاص لا يحتاج إلى حفل يشهده الناس .. إنى لن أقابل أباك ولن يرى وجهى أو أرى وجهه إلا بعد أن يوافق فعلا على زواجنا وأذهب إليه كما أذهب إلى المأذون ..

وقالت : نظيرة كأنها تحادث نفسها وكأنها لا تدهش من أى كلام لى :

- سأعتمد على ماما لتبدأ الكلام مع بابا ..

وقد مرت أكثر من عشرة أيام ونظيرة تروى لى فى كل يوم ما يدور فى البيت من أحاديث .. إن أمها وافقت وأباها لا يزال يفكر ويبحث .. وكنا خلال هذه الأيام فى قمة السعادة .. نضحك ونمرح ونعمل .. ونظيرة تعطينى أكثر حتى أنى فى لحظة من اللحظات التى رفعتنى إلى قمة النشوة حاولت أن تكون هذه هى ساعة الدخلة .. ولكن نظيرة بمرحها استطاعت أن تهرب منى .. إنها بإيمانها ومعتقداتها لا تزال مصرة على ألا تكون الدخلة إلا بعد كتب الكتاب ..

إلى أن ذهبت يوماً إلى الشقة ووجدت نظيرة قد سبقتنى إلى هناك وما كادت ترانى حتى أطلقت زغرودة عالية .. زغرودة بلدى .. وأنا واقف أمامها مذهولاً أحس كأنى أريد أن ألتقط لسانها الذى يرقص داخل فمها المفتوح وهى تزغرد ..

وقالت ضاحكة بعد أن انتهت الزغرودة :

- إنى أزغـرد للعريس .. لقـد وافق بابا .. وهو فى انتظارك غداً ..

قلت فرحاً وكأن الفرحة تزغرد فى داخلى أنا الآخر :

- وسنكتب الكتاب ..

قالت ضاحكة :

- حرام عليك .. دعه يراك ويعرفك أولاً ولو ليوم واحد ..

قلت وأنا أميل عليها وأحتضنها وأضمها إلى صدرى بقوة :

- المهم لقد وصلنا وانتهينا وتزوجنا ..

وقالـت وهى تنزع نفسـها من بين أحـضانى وتجـرى إلى غرفة النوم مع ضحكتها :

- هذا بعدك .. سنـنتظر كتب الكتـاب .. وأمامنا أيام .. والله حرام .. حرام أن ننتظر ولو أياماً ..

ثم وقفت تقبلنى ونحن واقفان بجانب الفراش ثم عادت إلى غرفة المكتب قائلة من خلال ضحكتها :

- دق الجرس .. لنبدأ المذاكرة ..

●●●

وذهبت فى اليوم التالى للقاء الحاج عبد الغفور البرعى وقد تعمدت أن أكـون فى حالة رسمية مـرتدياً حلتى الكاملة وجاداً متـجهمـاً فى كل تحركاتى ، ولكنه اسـتقبلنى بتـرحاب كبـير وابتسامة تلمع عن شفتيه وتكلم قبل أن أتكلم قائلا :

- لقد سمعت عنك كل ما يطمئنى بل كل ما يشرفنى لنكون عـائلة واحدة .. إن الزواج الذى أتمـناه لبناتى هو الزواج الذى يقـوم على أن يحـقق كل من الزوجيـن ما يريده الآخـر .. وأنا

واثق أنك ستحقق لنظيرة كل ما تريده منك .. إنها صغرى بناتى وأعزهن لدىّ وأعتقد أنها أذكاهن . وعلى بركة الله ..

قلت وأنا لا أزال فى حالتى الرسمية :

– وفقنا الله ببركة دعواتك ..

وقال ضاحكاً وترن ضحكته فى أذنى كأنها ضحكة نظيرة :

– هل تريد أن تعرف أكثر ما أعجبنى فيك .. إنه ما قالوه لى أنك لا تريد حفل زفاف ..

قلت وأنا جاد :

– إنى لست مقتنعاً بحفلات الزفاف .. يكفى أفراد العائلتين كشهود ..

واستمر الحديث بيننا إلى أن تحررت قليلاً من إحساسى بصفتى الرسمية ثم قال لى ، ولا أدرى هل كانَ يختبرنى أم كان صادقاً :

– هل تفضل التفرغ للعمل فى الشركة الهندسية التى تعمل بها .. إنى فى حاجة إلى مهندس ..

قلت كأنى أتباهى أمامه :

– إنى لست متفرغاً للعمل فى الشركة .. إنى أعد مشروعاً خاصاً ..

وقال فى حماس كأى رجل أعمال :

– أى مشروع ؟

قلت وأنا لا زلت متباهياً :

– إنى على وشك أن أنتهى من رسم وإعداد بناء عمارة كبيرة .. اثنان وثلاثون من الأدوار .. وسأبيعها قبل أن أبدأ فى بنائها .. وأقنعت الشركة التى أعمل بها أن تشترك فى

المشروع .. وأنا كبير الأمل فى أن أجد المشترين ..

وقال فى حماس :

- سأشترى فى عمارتك عدداً من الأدوار ..

وقلت وأنا أتعمد أن أثبت له أنى فى غنى عنه :

- آسف .. لا أنا ولا زوجتى نظيرة سيكون لنا شىء فى هذه العمارة .. أفضل أن نكون أصحاب مشروعات لا ملاكاً ..

وقال كأنه دهش منى :

- ليست زوجتك التى تشترى .. أنا الذى أشترى ..

قلت كأنى أصدمه :

- إنك والد زوجتى .. أفضل ألا أعرض العائلة للمجازفة فى مشروع لم يتم بعد ..

قلتها كأنى أقول له إنى أرفض أمواله ..

ونظر إلىّ ساكتاً فى إعجاب واحترام كأنه تأكد أنى لا أتزوج ابنته طمعاً فى ماله وثرائه ..

وقد تم الزواج بعد أكثر من شهر فقد كانت نظيرة مصممة على أن تصنع ثوب العرس لنفسها .. وأن تعد استقبالاً خاصاً لعائلتى ساعة كتب الكتاب ، وأن تلتقط لنا صوراً فوتغرافية .. إن أكثر ما أعتز به هو هذه الصورة الفوتغرافية لنا نحن الاثنين وهى بثوب الزفاف وأنا أبدو رشيقاً فى حلتى التى أعددتها خصيصاً لهذه الساعة بعد إلحاح نظيرة ..

●●●

لقد مضى على زواجنا ثلاث سنوات ونحن فى قمة السعادة .. ونحن تقريباً متباعدان عن عائلتها وعائلتى وإن كان كل أفراد العائلتين معجبين بنا ، وأشدهم إعجاباً الحاج

عبد الغفور .. إنه يعرف أنى أقوى من أن أحتاج إليه .. ونقيم فى نفس الشقة القديمة ولو أننا بدأنا نبحث عن شقة أخرى واسعة لننجب أولادنا بعد أن نجح مشروع بناء العمارة وبدأت أعد لبناء عمارة أخرى .. ونظيرة تخرجت فى الجامعة الأمريكية وألححت عليها بأن تتفرغ للعمل معى إنى أعتمد عليها اعتماداً كاملاً فى كثير من الأبحاث والاتصالات التى أحتاج إليها .. وهى تبذل كل جهدها فى معاونتى وإن كانت لا تزال تحتفظ بما أحبه فيها وهى طبيعتها المتأصلة كامرأة بلدى ..

لا يثير الحساسية بيننا إلا عندما نتحدث أحياناً وفى فترات متباعدة عن الميراث .. ميراثها من أبيها الحاج عبد الغفور ..

إن نظيرة سترث إرثاً هائلاً يكفى لتغطية مشروعات ضخمة ..

ولكننا كلما تعرضنا لهذا الموضوع ننهيه بنكتة ..

ونضحك ..

وتذوب ضحكتى وأنا أفكر فى المشاريع الضخمة التى يمكن أن نحققها بعد أن ترث زوجتى نظيرة أباها الحاج عبد الغفور ..

رقم الإيداع ٨٥٨٥/ ٢٠٠٠

الترقيم الدولى

977 - 08 - 09241